في ظلال القرآن

الجزء التاسع عشر

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء التاسع عشر

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الفرقان والشعراء والنمل



سورة الفرقان مكية
وآياتها ٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« تبارَكَ ٱلَّذِى نزَّلَ ٱلفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً * ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً * وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً .

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ : أَنْزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً .

« وَقَالُوا : مَالِهَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ، وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ؟ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ ٱلظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُورًا . ٱنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ، فَضَلُّوا ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ ٱلَّذِى ـ إِنْ شَاءَ ـ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ ، جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا .

« بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ

مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا * قُلْ : أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ؟

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَيَقُولُ : أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا : سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ، وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ، فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا .

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا » . . .

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتسرية ، وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش ، وعنادهم له ، وتطاولهم عليه ، وتعنتهم معه ، وجدالهم بالباطل ، ووقوفهم في وجه الهدى وصدهم عنه .

فهي في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله ؛ وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحا رفيقا ؛ ويهدهد قلبه ، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة ، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللطف والمودة .

وهي في اللمحة الأخرى تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله ورسوله ، وهي تجادل في عنف ، وتشرد في جموح ، وتتطاول في قحة ، وتتعنت في عناد ، وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين .

إنها البشرية التي تقول عن هذا القرآن العظيم : « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه

قوم آخرون » .. أو تقول : « أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » والتى تقول عن محمد رسول الله الكريم : « إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » .. أو تقول فى استهزاء : « أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ » .. والتى لا تكتفى بهذا الضلال ، فإذا هى تتطاول فى فجور على ربها الكبير : « وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمان قالوا : وما الرحمان ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا » . أو تتعنت فتقول : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ؟» .

وهى هى من قديم كما يرسمها سياق السورة من عهد نوح إلى موقفها هذا الأخير مع رسولها الأخير ...

لقد اعترض القوم على بشرية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا : « مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ! »

واعترضوا على حظه من المال ، فقالوا : « أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها».

واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن فقالوا : «لولا أنزل عليه جملة واحدة ! » .

وذلك فوق التكذيب والاستهزاء والقحة والافتراء الأثيم .

ووقف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يواجه هذا كله ، وهو وحيد فريد مجرد من الجاه والمال ، ملتزم حده مع ربه لا يقترح عليه شيئاً ، ولا يزيد على أن يتوجه إليه مبتغيا رضاه ، ولا يحفل بشىء سواه : « رب إلا يكن بك على غضب فلا أبالى . لك العتبى حتى ترضى » .. (١)

فهنا فى هذه السورة يؤويه ربه إلى كنفه ، ويمسح على آلامه ومتاعبه ، ويهدهده ويسرى عنه ، ويهون عليه مشقة مايلقى من عنت القوم وسوء أدبهم وتطاولهم عليه ، بأنهم يتطاولون على خالقهم ورازقهم ، وخالق هذا الكون كله ومقدره ومدبره .. فلا عليه أن ينالوه بشىء من ذاك ! « ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا » .. « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » .. « وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمان قالوا : وما الرحمان ؟ » ..

ويعزيه عن استهزائهم به بتصوير المستوى الهابط الذى يتمرغون فيه : « أرأيت من

(١) من مناجاته لربه عقيب ما لقى فى الطائف من أذى .

اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ! » .

ويعده العون والمساعدة فى معركة الجدل والمحاجة : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » . .

وفى نهاية المعركة كلها يعرض عليه مصارع المكذبين من قبل : قوم موسى ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وما بين ذلك من قرون .

ويعرض عليه نهايتهم التعيسة فى سلسلة من مشاهد القيامة : « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » . . « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » . . « ويوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتا ! ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . . »

ويسليه بأن مثله مثل الرسل كلهم قبله : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » . . « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين . وكفى بربك هاديا ونصيرا » .

ويكلفه أن يصبر ويصابر ، ويجاهد الكافرين بما معه من قرآن ، واضح الحجة قوى البرهان عميق الأثر فى الوجدان : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » . .
ويغريه على مشاق الجهاد بالتوكل على مولاه : « وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيرا » . .

وهكذا تمضى السورة : فى لمحة منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله لرسوله . وفى لمحة منها مشاقة وعنت من المشركين لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتتبير ونكال من الله الكبير المتعال . حتى تقرب من نهايتها ، فإذا ريح رخاء وروح وريحان ، وطمأنينة وسلام . . وإذا صورة « عباد الرحمان » . . « الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . . . » وكأنما تتمخض عنهم معركة الجهاد الشاقة مع البشرية الجاحدة الضالة المعاندة المشاقة ؛ وكأنما هم الثمرة الحلوة الجنية الممثلة للخير الكامن فى شجرة البشرية ذات الأشواك .

وتختم السورة بتصوير هوان البشرية على الله ، لولا تلك القلوب المؤمنة التي تلتجيء إليه وتدعوه : « قل : ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم . فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » ..

* * *

هذه هي ظلال السورة ؛ وذلك هو محورها الذي تدور عليه ، وموضوعها الذي تعالجه . وهي وحدة متصلة ، يصعب فصل بعضها عن بعض . ولكن يمكن تقسيمها إلى أربعة أشواط في علاج هذا الموضوع .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا . وبتوحيد الله المالك لما في السماوات والأرض ، المدبر للكون بحكمة وتقدير ، ونفي الولد والشريك . ثم يذكر اتخاذ المشركين مع ذلك آلهة من دونه لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . . كل أولئك قبل أن يحكي مقولاتهم المؤذية عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تكذيبه فيما جاءهم به ، وادعائهم أنه إفك افتراه ، وأنه أساطير الأولين اكتتبها . وقبل أن يحكي اعتراضاتهم على بشرية الرسول وحاجته للطعام والمشي في الأسواق ، واقتراحاتهم أن ينزل عليه ملك أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها . وقحتهم في وصفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه رجل مسحور . . وكأنما يسبق بمقولاتهم الجاحدة لربهم كي يهون على نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقولاتهم عنه وعن رسالته . . ومن ثم يعلن ضلالهم وتكذيبهم بالساعة ، ويتوعدهم بما أعده الله لهم من سعير ، يلقون فيها مكانا ضيقا مقرنين . ويعرض في الصفحة المقابلة صورة المؤمنين في الجنة . « لهم فيها ما يشاءون خالدين » . . ويستمر في عرض مشهدهم يوم الحشر ، ومواجهتهم بما كانوا يعبدون من دون الله ، وتكذيب هؤلاء لهم فيما كانوا يدعون على الله من شرك . . وينتهي هذا الشوط بتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الرسل جميعا كانوا بشراً مثله ، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق .

ويبدأ الشوط الثاني بتطاول المكذبين بلقاء الله على الله ، وقولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » . ويعاجلهم بمشهد اليوم الذي يرون فيه الملائكة .. « وكان يوماً على الكافرين عسيرا » . . « ويوم يعض الظالم على يديه يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا » . . ليكون في ذلك تأسية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم يهجرون القرآن ، وهو يشكو لربه هذا الهجران . وهم يعترضون على طريقة تنزيله ؛ ويقولون : « لولا أنزل

عليه القرآن جملة واحدة » . ويعقب على هذا الاعتراض بمشهدهم يوم القيامة يحشرون على وجوههم ، وهم المكذبون بيوم القيامة . وبتصوير عاقبة المكذبين قبلهم من قوم موسى وقوم نوح ، وعاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك ، ويعجب من أمرهم وهم يمرون على قرية لوط المدمرة ولا يعتبرون . فهون بذلك كله من وقع تطاولهم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقولهم : « أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ » ثم يعقب على هذا الاستهزاء بتحقيرهم ووضعهم فى صف الأنعام بل دون ذلك : « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

والشوط الثالث جولة فى مشاهد الكون تبدأ بمشهد الظل ، وتستطرد إلى تعاقب الليل والنهار ، والرياح المبشرة بالماء المحي ، وخلقة البشر من الماء . ومع هذا فهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، ويتظاهرون على ربهم وخالقهم ، ويتطاولون فى قحة إذا دعوا إلى عبادة الله الحق .. « وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمان قالوا : وما الرحمان ؟ » .. « وهو الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » .. ولكنهم هم لا يتذكرون ولا يشكرون . .

ثم يجيء الشوط الأخير يصور « عباد الرحمن » الذين يسجدون له ويعبدونه ، ويسجل مقوماتهم التى استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة . ويفتح باب التوبة لمن يرغب فى أن يسلك طريقة عباد الرحمان . ويصور جزاءهم على صبرهم على تكاليف الإيمان والعبادة : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما » .

وتختم السورة بتقرير هوان البشرية على الله لولا هذه القلوب الطائعة المستجيبة العارفة بالله فى هذا القطيع الشارد الضال من المكذبين والجاحدين . .

وفى هذا الهوان تهوين لما يلقاه منهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو يتفق مع ظل السورةوجوها، ويتفق مع موضوعها وأهدافها ، على طريقة التناسق الفنى فى القرآن .

* * *

والآن نبدأ الشوط الأول بالتفصيل :

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السماوات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا .

واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ؟ ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » . .

إنه البدء الموحى بموضوع السورة الرئيسى : تنزيل القرآن من عند الله ، وعموم الرسالة إلى البشر جميعا . ووحدانية الله المطلقة ، وتنزيهه عن الولد والشريك ، وملكيته لهذا الكون كله ، وتدبيره بحكمة وتقدير . . وبعد ذلك كله يشرك المشركون ، ويفترى المفترون ، ويجادل المجادلون ، ويتطاول المتطاولون !

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . .

والتبارك تفاعل من البركة ، يوحى بالزيادة فيها والفيض والرفعة جميعا . ولم يذكر لفظ الجلالة واكتفى بالاسم الموصول « الذى نزل الفرقان » لإبراز صلته وإظهارها فى هذا المقام ، لأن موضوع الجدل فى السورة هو صدق الرسالة وتنزيل القرآن .

وسماه الفرقان . بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال . بل بما فيه من تفرقة بين نهج فى الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد . فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها فى صورتها المستقرة فى الضمير ، وصورتها الممثلة فى الواقع . منهجا لا يختلط بأى منهج آخر مما عرفته البشرية قبله . ويمثل عهدا جديدا للبشرية فى مشاعرها وفى واقعها لا يختلط كذلك بكل ما كان قبله . فهو فرقان بهذا المعنى الواسع الكبير . فرقان ينتهى به عهد الطفولة ويبدأ به عهد الرشد . وينتهى به عهد الخوارق المادية ويبدأ به عهد المعجزات العقلية . وينتهى به عهد الرسالات المحلية الموقوتة ، ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة : « ليكون للعالمين نذيرا » .

وفى موضع التكريم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفى مقام التعظيم يصفه بالعبودية : « على عبده » .. كذلك وصفه فى مقام الإسراء والمعراج فى سورة الإسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . وكذلك وصفه فى مقام دعائه ومناجاته فى سورة الجن : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه . . . » . وكذلك يصفه هنا فى مقام تنزيل الفرقان عليه كما وصفه فى مثل هذا المقام فى مطلع سورة الكهف : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . . . » والوصف بالعبودية فى هذه المواضع له دلالته على رفعة هذا المقام ، وأنه أرفع ما يرتفع إليه بشر من بنى الإنسان . كما أن فيه تذكيرا خفيا

بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لا يزيد على أن يكون مقام العبودية لله . ويبقى مقام الألوهية متفردا بالجلالة ، متجردا من كل شبهة شرك أو مشابهة . ذلك أن مثل مقام الإسراء والمعراج، أو مقام الدعاء والمناجاة ، أو مقام الوحى والتلقى ، كان مزلة لبعض أتباع الرسل من قبل ، منها نشأت أساطير البنوة لله ، أو الصلة القائمة على غير الألوهية والعبودية . ومن ثم يحرص القرآن على توكيد صفة العبودية فى هذا المقام ، بوصفها أعلى أفق يرتفع إليه المختارون من بنى الإنسان .

ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده .. « ليكون للعالمين نذيرا » . . وهذا النص مكى ، وله دلالته على إثبات عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى . لا كما يدعى بعض « المؤرخين » غير المسلمين ، أن الدعوة الإسلامية نشأت محلية ، ثم طمحت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تكون عالمية . فهى منذ نشأتها رسالة للعالمين . طبيعتها طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة ؛ وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ، ومن نهج إلى نهج . عن طريق هذا الفرقان الذى نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، فهى عالمية للعالمين والرسول يواجه فى مكة بالتكذيب والمقاومة والجحود ..

تبارك الذى نزل الفرقان على عبده .. « الذى له ملك السماوات والأرض . ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ..

ومرة أخرى لا يذكر لفظ الجلالة ولكن يذكر الاسم الموصول لإبراز صلته الدالة على صفات يراد توكيدها فى هذا المقام :

« الذى له ملك السماوات والأرض » .. فله السيطرة المطلقة على السماوات والأرض . سيطرة الملكية والاستعلاء ، وسيطرة التصريف والتدبير ، وسيطرة التبديل والتغيير .

« ولم يتخذ ولدا » .. فالتناسل ناموس من النواميس التى خلقها الله لامتداد الحياة ؛ وهو سبحانه باق لا يفنى ، قادر لا يحتاج .

« ولم يكن له شريك فى الملك » . . وكل مافى السماوات والأرض شاهد على وحدة التصميم ، ووحدة الناموس ، ووحدة التصريف .

« وخلق كل شىء فقدره تقديرا » . قدر حجمه وشكله . وقدر وظيفته وعمله . وقدر زمانه ومكانه . وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه ، لما يدعو إلى الدهشة حقا ، وينفي فكرة المصادفة نفياباتا . ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره ، في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير . وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . .

يقول (ا . كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان : « الإنسان لا يقوم وحده[1] » .

ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل ، بالغا هذه الدقة الفائقة . لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسيجين ، ولما أمكن وجود حياة النبات .

« ولو كان الهواء أرفع كثيرا مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية . وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إربا من مجرد حرارة مروره !

« إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائي التي يحتاج إليها الزرع ، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان ، إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم ، وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور — ومعظمها سام — فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء — أي المحيط — الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيرا الإنسان نفسه . . . » .

ويقول في فصل آخر :

---

(١) ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان : « العلم يدعو إلى الإيمان »

« لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ فى المئة مثلا أو أكثر فى الهواء بدلا من ٢١ فى المئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر . ولو أن نسبة الأوكسجين فى الهواء قد هبطت إلى ١٠ فى المئة أو أقل ، فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها فى خلال الدهور . ولكن فى هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التى ألفها الإنسان — كالنار مثلا — تتوافر له »

ويقول فى فصل ثالث .

« ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذى منع أى حيوان — مهما يكن من وحشيته أو ضخامته أو مكره — من السيطرة على العالم ، منذ عصر الحيوانات القشرية المتجمدة ! غير أن الإنسان وحده قد قلب هذا التوازن الذى للطبيعة بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر . وسرعان مالقى جزاءه القاسى على ذلك ، ماثلا فى تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات .

« والواقعة الآتيــة فيها مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان . فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار فى أستراليا . كسياج وقائى . ولكن هذا الزرع مضى فى سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا ، وزاحم أهل المدن والقرى ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة . ولم يجد الأهالى وسيلة تصده عن الانتشار ؛ وصارت أستراليا فى خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت ، يتقدم فى سبيله دون عائق !

« وطاف علماء الحشرات بنواحى العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ، ولا تتغذى بغيره ، وهى سريعة الانتشار ، وليس لها عدو يعوقها فى أستراليا . وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار . ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفى لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد .

« وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائما مجدية .

« ولماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم إلى درجة كان أجدادنا يموتون معها ، أو يكسبون مناعة منها ؟ ومثل ذلك أيضا يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التى تقدمت شمالا فى أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك . كذلك البعوض كثير فى المنطقة المتجمدة . ولماذا لم

تتطور ذبابة « تسى تسى » حتى تستطيع أن تعيش أيضا فى غير مناطقها الحارة ، وتمحو الجنس البشرى من الوجود ؟ يكفى أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفاتكة التى لم يكن له وقاء منها حتى الأمس القريب ، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشرى رغم ذلك يدعو حقا إلى الدهشة ! ...

« إن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان ؛ ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب . وحين تنمو الحشرات وتكبر ، لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها فى نسبة تزايد حجمها . ومن ثم لم توجد قط حشرة أطول من بضع بوصات ، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلا . وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها لم يكن فى الإمكان وجود حشرة ضخمة . وهذا الحد من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها ، ومنعها من السيطرة على العالم . ولولا وجود هذا الضابط الطبيعى لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض . وتصور إنسانا فطريا يلاقى دبورا يضاهى الأسد فى ضخامته ، أو عنكبوتا فى مثل هذا الحجم !

« ولم يذكر إلا القليل عن التنظيمات الأخرى المدهشة فى فيزيولوجيا الحيوانات ، والتى بدونها ما كان أى حيوان — بل كذلك أى نبات — يمكن أن يبقى فى الوجود ... الخ »

وهكذا ينكشف للعلم البشرى يوما بعد يوم ، شىء من تقدير الله العجيب فى الخلق ، وتدبيره الدقيق فى الكون ، ويدرك البشر شيئا من مدلولات قوله فى الفرقان الذى نزله على عبده : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » . .

ومع هذا فإن أولئك المشركين لم يدركوا شيئا من هذا كله .

« واتخذوا من دونه آلهة ، لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ؛ ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً ؛ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » . .

وهكذا يجرد آلهتهم المدعاة من كل خصائص الألوهية فهم « لا يخلقون شيئا » والله خلق كل شىء . « وهم يخلقون » . . يخلقهم عبادهم — بمعنى يصنعونهم — إن كانوا أصناما وأوثانا — ويخلقهم الله — بمعنى يوجدهم — إن كانوا ملائكة أو جنا أو بشرا أو شجرا أو حجرا . . « ولا يملكون لأنفسهم » فضلا عن أن يملكوا لعبادهم « ضرا ولا نفعا » والذى لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر . ولكن حتى هذا لا يملكونه . ومن ثم يقدمه فى التعبير بوصفه أيسر شىء كان يملكه أحد لنفسه ! ثم يرتقى إلى الخصائص التى لا يقدر عليها إلا الله :

« ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » فلا إماتة حى ، ولا إنشاء حياة ، ولا إعادتها داخل فى مقدورهم . فماذا لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية ، وما شبهة أولئك المشركين فى اتخاذهم آلهة ؟!

ألا إنه الانحراف المطلق ، الذى لا يستغرب معه أن يدعوا على الرسول بعد ذلك مايدعون ، فدعواهم على الله أضخم وأقبح من كل مايدعون على رسوله . وهل أقبح من ادعاء إنسان على الله وهو خالقه وخالق كل شىء ، ومدبر أمره ومقدر كل شىء . هل أقبح من ادعاء إنسان أن لله شريكا ؟ وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك ... »(١)

* * *

وبعد عرض هذا التطاول على مقام الخالق جل وعلا ، يعرض تطاولهم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويرد عليه عقب عرضه بما يظهر سخفه وكذبه :

« وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل : أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما » ...

وأكذب شىء أن يقول كفار قريش هذه المقالة ، وهم يوقنون فى أنفسهم أنها الفرية التى لا تقوم على أساس . فما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذين يلقنونهم هـذا القول أن القرآن الذى يتلوه عليهم محمد — صلى الله عليه وسلم — شىء آخر غير كلام البشر ؛ وهم كانوا يحسون هذا بذوقهم فى الكلام ؛ وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن . ثم هم كانوا يعلمون عن محمد قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذى لا يكذب ولا يخون . فكيف به يكذب على الله ، وينسب إليه قولا لم يقله ؟

ولكنه العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سيادتهم الدينية ، كان يجنح بهم إلى هذه المناورات يطلقونها فى وسط جمهور العرب ، الذين قد لا يميزون بين الكلام ، ولا يعرفون درجته : « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » . قيل : إنهم عبيد أعاجم ثلاثة أو أكثر ، هم الذين كانوا يعنونهم بهذه المقالة . وهو كلام متهافت تافه لا يقف للجدل .

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

فإن كان بشر يملك أن يفترى مثل هذا القرآن بمعاونة قوم آخرين ، فما يمسكهم هم عن الإتيان بمثله ، مستعينين بأقوام منهم ، ليبطلوا حجة محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو يتحداهم به وهم عاجزون ؟ !

ومن ثم لا يجادلهم هنا ولا يناقشهم فى هذا القول المتهافت ؛ إنما يدمغهم بالوصف البارز الثابت :

« فقد جاءوا ظلماً وزوراً » . . ظلماً للحق ، وللحمد ، ولأنفسهم . وزوراً واضح الكذب ظاهر البطلان .

ثم يمضى فى استعراض مقولاتهم عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعن القرآن :

« وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » . .

ذلك لما وجدوا فيه من قصص الأولين التى يسوقها للعبرة والعظة ، وللتربية والتوجيه ، فقالوا عن هذا القصص الصادق : « أساطير الأولين » وزعموا أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — طلب أن تكتب له ، لتقرأ عليه فى الصباح والمساء — إذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب — ثم يقولها هو بدوره ، وينسبها إلى الله ! وهذا استطراد فى دعواهم التى لا تقوم على أساس ، ولا تثبت للمناقشة . وإن سياقة القصص فى القرآن بهذا التنسيق فى عرضه ؛ وبهذا التناسق بينه وبين الموضوع الذى يساق فيه ، ويستشهد بالقصص عليه ؛ وبهذا التناسب بين أهداف القصص وأهداف السياق فى السورة الواحدة . . إن هذا كله ليشهد بالقصد والتدبير العميق اللطيف الذى لا يلحظ فى الأساطير المبعثرة التى لا تجمعها فكرة ، ولا يوجهها قصد ، إنما تساق للتسلية وتزجية الفراغ[1] !

وفى قولهم : إنها أساطير الأولين إشارة إلى بعدها فى الزمان ، فلا يعلمها محمد — صلى الله عليه وسلم — إلا أن تملى عليه من حفاظ الأساطير ، الذين ينقلونها جيلا عن جيل . لذلك يرد عليهم بأن الذى يمليها على محمد أعلم من كل عليم . فهو الذى يعلم الأسرار جميعا ، ولا يخفى عليه نبأ فى الأولين والآخرين : « قل : أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض » . . فأين علم

---

(١) يراجع بتوسع فصل : القصة فى القرآن فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

حفاظ الأساطير ورواتها من ذلك العلم الشامل ؟ وأين أساطير الأولين من السر فى السماوات والأرض ؟ وأين النقطة الصغيرة من الخضم الذى لا ساحل له ولا قرار ؟

ألا إنهم ليرتكبون الخطيئة الكبيرة ، وهم يدعون على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تلك الدعوى المتهافتة ؛ ومن قبل يصرون على الشرك بالله وهو خلقهم . . ولكن باب التوبة مع ذلك مفتوح ، والرجوع عن الإثم ممكن ، والله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض . ويعلم ما يفترون وما يكيدون ، غفور رحيم : « إنه كان غفورا رحيما » .

* * *

ثم يستطرد فى عرض مقولاتهم عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واعتراضاتهم الجاهلة على بشريته ، واقتراحاتهم المتعنتة على رسالته :

« وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ! أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا » . .

ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ ما له بشرا يتصرف تصرفات البشر ؟ إنه الاعتراض المكرور الذى رددته البشرية عن كل رسول ! كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان ، المعروف لهم ، المألوف فى حياتهم ، الذى يأكل كما يأكلون ، ويعيش كما يعيشون . . كيف يمكن أن يكون رسولا من عند الله يوحى إليه ؟ كيف يمكن أن يتصل بعالم آخر غير عالم الأرض يتلقى عنه ؟ وهم يرونه واحداً منهم من لحم ودم . وهم لا يوحى إليهم ، ولا يعرفون شيئا عن ذلك العالم الذى يأتى منه الوحى لواحد منهم ، لا يتميز فى شىء عنهم !

والمسألة من هذا الجانب قد تبدو غريبة مستبعدة . ولكنها من الجانب الآخر تبدو طبيعية مقبولة . . لقد نفخ الله من روحه فى هذا الإنسان ؛ وبهذه النفخة الإلهية تميز وصار إنسانا ، واستخلف فى الأرض . وهو قاصر العلم ، محدود التجربة ، ضعيف الوسيلة ، وما كان الله ليدعه فى هذه الخلافة دون عون منه ، ودون هدى ينير له طريقه . وقد أودعه الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التى ميزته . فلا عجب أن يختار الله واحدا من هذا

الجنس ، صاحب استعداد روحي للتلقي ؛ فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلما غام عليهم الطريق ، وما يقدم به إليهم العون كلما كانوا في حاجة إلى العون .

إنه التكريم الإلهي للإنسان يبدو في هذه الصورة العجيبة من بعض جوانبها ، الطبيعية من البعض الآخر . ولكن الذين لا يدركون قيمة هذا المخلوق ، ولا حقيقة التكريم الذي أراده الله له ، ينكرون أن يتصل بشر بالله عن طريق الوحي ؛ وينكرون أن يكون واحد من هؤلاء البشر رسولا من عند الله . يرون الملائكة أولى بهذا وأقرب : « لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا » . والله قد أسجد الملائكة للإنسان بما أودعه من الخصائص الفائقة ، الناشئة من النفخة العلوية الكريمة .

وإنها الحكمة الإلهية كذلك تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر . واحد من البشر يحس إحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعاني تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم .. ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو في قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ، لأنه في النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق !

وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد ، لأنه بشر منهم ، يتسامى بهم رويدا رويدا ؛ ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم ، وأرادها منهم ؛ فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم . وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم ينقلونها سطرا سطرا ، ويحققونها معنى معنى ، وهم يرونها بينهم ، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها ، لأنها ممثلة في إنسان ؛ ولو كان ملكا ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه ؛ لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم ، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته ، ولا شوق إلى تحقيق صورته !

فهي حكمة الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا . هي حكمة الله البالغة أن جعل الرسول بشرا ليؤدي دوره على قيادة البشر . والاعتراض على بشرية الرسول جهل بهذه الحكمة . فوق ما فيه من جهل بتكريم الله للإنسان !

وكان من اعتراضاتهم الساذجة الجاهلة أن هذا الرسول يمشي في الأسواق ليكسب رزقه .

فهلا كفاه الله ذلك ، وحباه بالمال الكثير عن غير كد ولا عمل : « أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها » !

والله لم يرد لرسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يكون له كنز ولا أن تكون له جنة . لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته ؛ ينهض بتكاليف رسالته الضخمة الهائلة ، وهو فى الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته . فلا يقولن أحد من أمته يكد لعيشه : لقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مكفى الحاجة ، لا يعانى صراع العيش ، ومن ثم فرغ لعقيدته ورسالته وتكاليفه، فلم يعوقه عائق مما أعانى . . فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل ليعيش ، ويعمل لرسالته ، فلا أقل من أن ينهض كل أحد من أمته بنصيبه الصغير من تكاليف هذه الرسالة — وقدوته أمامه — ولقد انهال المال بعد ذلك على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كى تتم التجربة من جانبها الآخر وتتم القدوة . فلم يدع هذا المال يشغله أو يعطله ، فكان كالريح المرسلة فى جوده ، حتى يستعلى على فتنة المال ، ويرخص من قيمته فى النفوس ؛ وكى لا يقولن أحد بعد ذلك : إنما نهض محمد — صلى الله عليه وسلم — برسالته ، لأنه عاش فقيرا لا يشغله من المال شاغل ، فها هو ذا المال يأتيه غزيرا وفيرا ، ولكنه يمضى فى دعوته كذلك . شأنه يوم أن كان فقيرا .

وما المال ؟ وما الكنوز ؟ وما الجنان ؟ حين يتصل الإنسان الفانى الضعيف بالله الباقى القوى ؟ ما هذه الأرض وما فيها ؟ بل ما هذا الكون المخلوق كله ، بعد الاتصال بالله خالق كل شىء ، وواهب الكثير والقليل ؟ ولكن القوم ما كانوا يوم ذلك يدركون !

« وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » . .

وهى كلمة ظالمة فاحشة حكاها عنهم هنا ، وحكاها عنهم كذلك فى سورة الإسراء . ورد عليها هنا وهناك ردا واحدا :

« انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » .

وكلتا السورتين تعالجان موضوعا متقاربا ، فى جو متقارب هنا وهناك . . وقولتهم تلك يقصدون بها الإساءة إلى شخص رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والتنقص منه . إذ يمثلونه برجل سحر عقله ، فهو يقول كلاما غريبا لا يقوله الطبيعيون من الناس ! ولكنها فى الوقت ذاته تشى بشعورهم الداخلى بأن ما يقوله غير طبيعى ، ولا مألوف ، ولا هو من عادة البشر ولا من مستوى البشر . . والرد عليهم يوحى بالتعجيب من أمرهم : « انظر كيف ضربوا لك

الأمثال » وشبهوك بالمسحورين مرة ، واتهموك بالتزوير مرة ، ومثلوك برواة الأساطير مرة .. وكله ضلال ، وبعد عن إدراك الحق « فضلوا » ضلوا عن كل طريق للحق ، وكل سبيل للهدى « فلا يستطيعون سبيلا » .

وينهى هذا الجدل ببيان تفاهة ما يقترحون وما يتصورون من أعراض الحياة الدنيا ، التى يحسبونها ذات قيمة ، ويرونها أجدر أن يعطيها الله لرسوله إن كان حقا رسولا ، من كنز يلقى إليه ، أو جنة يأكل منها . فلو شاء الله لأعطاه أكبر مما يقترحون من هذا المتاع :

« تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا » .

ولكنه شاء أن يجعل له خيرا من الجنات والقصور . الاتصال بواهب الجنات والقصور . والشعور برعايته وحياطته ، وتوجيهه وتوفيقه .. وتذوق حلاوة ذلك الاتصال ، الذى لا تقاربه نعمة من النعم ، ولا متاع صغر أو عظم . وشتان شتان لو كانوا يدركون أو يتذوقون !

* * *

وعند هذا الحد من استعراض مقولاتهم الظالمة عن الله وعلى رسول الله ، يكشف عن مدى آخر من آماد كفرهم وضلالهم . فهم يكذبون بالساعة ، ومن ثم لا يتحرجون من ظلم ولا افتراء ، ولا يخشون يوما يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء . وهنا يصورهم فى مشهد من مشاهد القيامة يزلزل القلوب الصلدة ويهز المشاعر الخامدة ، ويطلعهم على هول ما ينتظرهم هناك ؛ وعلى حسن ما ينتظر المؤمنين فى ذلك الهول العظيم :

« بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا !

« قل : أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزءا ومصيرا ، لهم فيها ما يشاءون خالدين ، كان على ربك وعدا مسئولا ؟ » ..

بل كذبوا بالساعة .. وبلغوا هذا المدى من الكفر والضلال . هذا المدى الذى يصوره التعبير بعيدا متطاولا ، يضرب عن كل ما قبله ليبرزه ويجسمه : « بل كذبوا بالساعة » ... ثم

يكشف عن الهول الذى ينتظر أصحاب هذه الفعلة الشنيعة . إنها السعير حاضرة مهيأة : « وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا » ..

والتشخيص ــ ونعنى به خلع الحياة وتجسيمها على ماليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعانى والحالات النفسية ــ فن فى القرآن ، يرتفع بالصور وبالمشاهد التى يعرفها إلى حد الإعجاز ، بما يبث فيها من عنصر الحياة [1] .

ونحن هنا أمام مشهد السعير المتسعرة ، وقد دبت فيها الحياة ! فإذا هى تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة . تراهم من بعيد ! فإذا هى تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ؛ وهى تتحرق عليهم ، وتصعد الزفرات غيظا منهم ؛ وهى تتميز من النقمة ، وهم إليها فى الطريق ! .. مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب !

ثم ها هم أولاء قد وصلوا . فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء . يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم . بل ألقوا إليها إلقاء . ألقوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم فى السلاسل . وألقوا فى مكان منها ضيق ، يزيدهم كربة وضيقا ، ويعجزهم عن التفلت والتململ .. ثم هاهم أولاء يائسون من الخلاص ، مكروبون فى السعير . فراحوا يدعون الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء : « إذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا » .. فالهلاك اليوم أمنية المتمنى ، والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذى لا يطاق .. ثم هاهم أولاء يسمعون جواب الدعاء . يسمعون تهكما ساخرا مريرا : « لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » . فهلاك واحد لا يجدى شيئا ولا يكفى شيئا !

وفى هذا الموقف المكروب الرعيب يعرض ما أعد للمتقين ، الذين يخشون ربهم ويرجون لقاءه ، ويؤمنون بالساعة . يعرض فى أسلوب متهكم كذلك ساخر .

« قل : أذلك خير ؟ أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاءا ومصيرا ؛ لهم فيها ما يشاءون خالدين . كان على ربك وعدا مسؤولا ؟ »

أذلك الكرب الفظيع خير ؟ أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين ، وخولهم حق سؤاله عنها ، وطلب تحقيق وعده الذى لا يخلف ، ومنحهم أن يطلبوا فيها مايشاءون ؟ وهل هناك

---

(١) يراجع فصل . « التخييل الحسى والتجسيم » فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

وجه للموازنة ؟ ولكنها السخرية المريرة بالساخرين الذين يتطاولون على الرسول الكريم .

ثم يمضى مستطردا يعرض مشهدا آخر من مشاهد الساعة التى كذب بها المكذبون . مشهد أولئك المشركين ، وقد حشروا مع آلهتهم التى كانوا يزعمون ، ووقف الجميع عبادا ومعبودين أمام الديان يسألون ويجيبون :

« ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ! ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء . ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوما بورا .. فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفا ولا نصرا . ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » ..

وما يعبدون من دون الله قد يكونون هم الأصنام . وقد يكونون هم الملائكة والجن ، وكل معبود من دون الله . وإن الله ليعلم . ولكن الاستجواب هكذا فى الساحة الكبرى ، وهم محشورون أجمعين ، فيه تشهير وتأنيب ، وهو ذاته عذاب مرهوب ! والجواب هو الإنابة من هؤلاء « الآلهة » ! الإنابة لله الواحد القهار . وتنزيهه عن ذلك الافتراء ، والتبرؤ لا من ادعاء الألوهية ، ولكن من مجرد أن يتخذوا لهم أولياء من دون الله ، والزراية على أولئك الجاحدين الجهال :

« قالوا : سبحانك ! ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء . ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوما بورا » . .

فهذا المتاع الطويل الموروث — على غير معرفة بواهب النعمة ولا توجه ولا شكر — قد ألهاهم وأنساهم ذكر المنعم ، فانتهت قلوبهم إلى الجدب والبوار . كالأرض البور لا حياة فيها ولا زرع ولا ثمار . والبوار الهلاك ، ولكن اللفظ يوحى كذلك بالجدب والخواء . جدب القلوب ، وخواء الحياة .

عندئذ يتوجه إلى أولئك العباد الجهال بالخطاب المخزى المهين :

« فقد كذبوكم بما تقولون . فما تستطيعون صرفا ولا نصرا » . . لا صرف العذاب ولا الانتصار .

وبينما المشهد فى الآخرة يوم الحشر ، ينتقل السياق فجأة إلى المكذبين وهم بعد فى الأرض :

« ومن يظلم منكم : نذقه عذابا كبيرا » . .

ذلك على طريقة القرآن فى لمس القلوب فى اللحظة التى تتهيأ فيها للاستجابة ؛ وهى متأثرة بمثل ذلك المشهد المرهوب !

* * *

والآن وقد شهدوا وشهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نهاية الافتراء والتكذيب والاستهزاء . ونهاية الاعتراض على بشرية الرسول وأكله الطعام ومشيه فى الأسواق . . الآن يعود إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — يسليه ويؤسيه ، بأنه لم يكن بدعا من الرسل ، فكلهم يمشون على سواء :

« وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة . أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا » . .

فإذا كان هناك اعتراض فليس هو اعتراضا على شخصه . إنما هو اعتراض على سنة من سنن الله . سنة مقدرة مقصودة لها غايتها المرسومة : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » . ليعترض من لا يدركون حكمة الله وتدبيره وتقديره . وليصبر من يثق بالله وحكمته ونصره . ولتمضى الدعوة تغالب وتغلب بوسائل البشر وطرائق البشر . وليثبت من يثبت على هذا الابتلاء : « أتصبرون ؟ » . . « وكان ربك بصيرا » . بصيرا بالطبائع والقلوب ، والمصائر والغايات . ولهذه الإضافة هنا « وكان ربك » إيحاؤها وظلها ونسمتها الرخية على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى مقام التأسية والتسلية والإيواء والتقريب . . والله بصير بمداخل القلوب . . .

«وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا . لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ، وَيَقُولُونَ : حِجْراً مَحْجُوراً * وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً * أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا * وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ ، وَكَانَ يَوْماً عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ : يَالَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ

ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا .

« وَقَالَ ٱلرَّسُولُ : يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا: لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ! كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا : ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ؟ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا .

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا . أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ؟ * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟ * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » ..

يبدأ هـذا الشوط من السورة بما يشبه بدء الشوط الأول ، ويسير سيرته فى تقديم ما يتطاول به المشركون على ربهم ، وما يتفوهون به من اعتراضات واقتراحات ، مقدمة لما يتطاولون به على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مقام تسليته وتعزيته . غير أن السياق

هنا يعجل بعرض ما ينتظرهم من عذاب الآخرة عقابا على ذلك التطاول ، فى سلسلة متصلة من مشاهد القيامة ، ردا على قولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » . . ثم يعرض اعتراضاتهم على تنزيل القرآن منجما ، ويعقب ببيان الحكمة من تنزيله متتابعا ، ويطمئن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عون الله له كلما تحدوه فى جدل : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . . ويعرض عليه وعليهم مصارع المكذبين قبلهم ، ويوجه نظرهم إلى مصرع قوم لوط ، وهم يمرون على قريته المدمرة ، مستنكرا ألا يحرك قلوبهم منظرها وهم يمرون عليها . . كل أولئك مقدمة لعرض استهزائهم بشخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتطاولهم على مقامه ، وما يكاد يعرض هذا حتى يعقب عليه تعقيبا قويا ، يحقرهم فيه ويحتقرهم : « إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » .

* * *

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ! لقد استكبروا فى أنفسهم ، وعتوا عتوا كبيرا . يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حجرا محجورا . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا . أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا . ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمان وكان يوما على الكافرين عسيرا . ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتا ! ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولا » ..

إن المشركين لا يرجون لقاء الله ، أى لا ينتظرون هذا اللقاء ، ولا يحسبون حسابه ، ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه . ومن ثم لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله ، فتنطلق ألسنتهم بكلمات وتصورات لا تصدر عن قلب يرجو لقاء الله .

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ! » . .

فقد كانوا يستبعدون أن يكون الرسول بشرا ؛ وكانوا يطلبون ، لكى يؤمنوا بالعقيدة التى يدعوهم إليها ، أن تنزل عليهم الملائكة تشهد بها ، أو أن يروا الله سبحانه وتعالى فيصدقوا . . وهو تطاول على مقام الله سبحانه . تطاول الجاهل المستهتر الذى لا يحس جلال الله فى نفسه ،

ولا يقدر الله حق قدره . فمن هم حتى يتطاولوا هـذا التطاول ؟ من هم إلى جوار الله العظيم الجبار المتكبر ؟ من هم وهم فى ملك الله وخلقه كالذرة التائهة الصغيرة ، إلا أن يربطوا أنفسهم بالله عن طريق الإيمان فيستمدوا منه قيمتهم . . ومن ثم يرد عليهم فى نفس الآية قبل أن تنتهى ، يكشف عن منبع هـذا التطاول :

« لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » . .

لقد عظم شأنهم فى نظر أنفسهم ، فاستكبروا وطغوا طغيانا كبيرا . لقد تضخم شعورهم بأنفسهم حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزنا صحيحا . لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كبرت فى أعينهم وتضخمت وعظمت ، حتى ليحسبونهم شيئا عظيما فى هذا الكون يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله ليؤمنوا ويصدقوا !

ثم يسخر منهم بصدق وحق ، إذ يطلعهم على الهول الذى ينتظرهم يوم يرون الملائكة — ورؤية الملائكة هى أقل الطلبين تطاولا — فإنهم لايرون الملائكة إلا فى يوم عصيب هائل ، ينتظرهم فيه العذاب الذى لا طاقة لهم به ، ولا نجاة لهم منه . ذلك هو يوم الحساب والعقاب :

« يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين . ويقولون : حجرا محجورا . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » . .

يوم يتحقق اقتراحهم الذى اقترحوه : « يوم يرون الملائكة » يومئذ لا يبشر المجرمون ولكن يعذبون . فيالها من استجابة لما يقولون ! يومئذ يقولون : « حجرا محجورا » أى حراما محرما . وهى جملة اتقاء للشر وللأعداء كانوا يقولونها استبعادا لأعدائهم وتحرزا من أذاهم . وهى تجرى فى ذلك اليوم على ألسنتهم بحكم العادة من الذهول حين يفاجأون . ولكن أين هم اليوم مما كانوا يقولون ! إن الدعاء لا يعصمهم ولا يمنعهم :

« وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

هكذا فى لحظة . والخيال يتبع حركة القدوم المجسمة المتخيلة — على طريقة القرآن فى التجسيم والتخييل[1] — ، وعملية الإثارة للأعمال ، والتذرية فى الهواء ؛ فإذا كل ما عملوا فى الدنيا من عمل صالح هباء . ذلك أنه لم يقم على الإيمان ، الذى يصل القلب بالله ، والذى

(١) يراجع فصل : التخييل الحسى والتجسيم فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » . ويراجع كتاب « مشاهد القيامة فى القرآن »

يجعل العمل الصالح منهجاً مرسوماً وأصلا قاصـدا ، لا خبط عشواء ، ولا نزوة طارئة ، ولا حركة مبتورة لا قصد لها ولا غاية . فلا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج ، ولا فائدة لحركة مفردة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم .

إن وجود الإنسان وحياته وعمله فى نظرة الإسلام موصولة كلها بأصل هذا الـكون ، وبالناموس الذى يحكمه ، والذى يصله كله بالله . بما فيه الإنسان وما يصدر عنه من نشاط . فإذا انفصل الإنسان بحياته عن المحور الرئيسى الذى يربطه ويربط الـكون ، فإنه يصبح لقى ضائماً لا وزن له ولا قيمة ، ولا تقدير لعمله ولا حساب . بل لا وجود لهذا العمل ولا بقاء .

والإيمان هو الذى يصل الإنسان بربه ؛ فيجعل لعمله قيمة ووزنا ، ويجعل له مكانه فى حساب هذا الـكون وبنائه .

وهكذا تعدم أعمال أولئك المشركين . تعدم إعداما يصوره التعبير القرآنى تلك الصورة الحسية المتخيلة :

« وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » . .

وهنا يلتفت إلى الجانب الآخر فإذا المؤمنون أصحاب الجنة ليتم التقابل فى المشهد :

« أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا » . .

فهم مستقرون مستروحون ناعمون فى الظلال . والاستقرار هنا يقابل خفة الهباء المنثور . والاطمئنان يقابل الفزع الذى يطلق الاستعاذة فى ذهول .

ولقد كان الـكفار يقترحون أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائـكة . وربما كان ذلك تأثرا بالأساطير الإسرائيلية التى كانت تصور الإله يتراءى لهم فى سحابة أو عمود من النار . فهنا يعود ليرسم مشهدا آخر يوم يتحقق اقتراحهم بنزول الملائكه إليهم :

« ويوم تشقق السماء بالغمام ، ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمان . وكان يوما على الكافرين عسيرا » .

وهذه الآية وكثير غيرها فى القرآن يقرر أن أحداثاً فلـكية ضخمة ستتم فى ذلك اليوم . وكلها تشير إلى اختلال كامل فى النظام الذى يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه

ونجومه وكواكبه . وإلى انقلاب فى أوضاعه وأشكاله وارتباطاته ، تكون به نهاية هذا العالم .
وهو انقلاب لا يقتصر على الأرض ، إنما يشمل النجوم والكواكب والأفلاك . ولا بأس من استعراض مظاهر هذا الانقلاب كما جاءت فى سور متعددة . « إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت ... وإذا البحار سجرت » .. « إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت » .. « إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت » . . « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » . « إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا » .. « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . يومئذ وقعت الواقعة ؛ وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » .. « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن » .. « إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها » .. « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش » . . « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم » .. « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » .. « السماء منفطر به » .. « إذا دكت الأرض دكا » . . « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » .. « فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت » .. « ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » . . « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » .. « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة » .. « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات » .. « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » .

فهذه الآيات كلها تنبئ بأن نهاية عالمنا هذا ستكون نهاية مروعة ، ترج فيها الأرض وتدك ، وتنسف فيها الجبال ، وتتفجر فيها البحار إما بامتلائها من أثر الاضطراب ؛ وإما بتفجر ذراتها واستحالتها ناراً . كذلك تطمس فيها النجوم وتنكدر ، وتشقق فيها السماء وتنفطر ، وتتحطم فيها الكواكب وتنتثر ، وتختل المسافات فيجمع الشمس والقمر ، وتبدو السماء مرة كالدخان ومرة متلهبة حمراء ... إلى آخر هذا الهول الكونى الرعيب .

وفى هذه السورة ــ الفرقان ــ يخوف الله المشركين بتشقق السماء بالغمام . وقد يكون هو السحب المتراكمة من أبخرة تلك الانفجارات المروعة . وتنزل الملائكة يومئذ على الكافرين

كما كانوا يقترحون ، لا لتصديق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولـكن ليتولوا عذابهم بأمر ربهم « وكان يوما على الـكافرين عسيرا » بما فيه من هول ، وبما فيه من عذاب . . فما لهم يقترحون نزول الملائـكة وهم لاينزلون إلا فى مثل ذلك اليوم العسير ؟

ثم يعرض مشهدا من مشاهد ذلك اليوم ، يصور ندم الظالمين الضالين . يعرضه عرضا طويلا مديدا ، يخيل للسامع أنه لن ينتهى ولن يبرح . مشهد الظالم يعض على يديه من الندم والأسف والأسى :

« ويوم يعض الظالم على يديه يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتنى لم أتخـذ فلانا خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا » . .

ويصمت كل شىء من حوله ؛ ويروح يمد فى صوته المتحسر ، ونبراته الأسيفة ؛ والإيقاع الممدود يزيد الموقف طولا ، ويزيد أثره عمقا . حتى ليـكاد القارىء للآيات والسامع يشاركان فى الندم والأسف والأسى !

« ويوم يعض الظالم على يديه » . . فلا تـكفيه يد واحدة يعض عليها . إنما هو يداول بين هذه وتلك ، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل فى عضه على اليدين . وهى حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيما .

« يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » . . فسلـكت طريقه ، لم أفارقه ، ولم أضل عنه . . الرسول الذى كان ينـكر رسالته ويستبعد أن يبعثه الله رسولا !

« يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » . . فلانا بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله[1] . . « لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى » . .

(١) تذكر بعض الروايات فى سبب نزول هذه الآيات ، أن عقبة ابن أبى معيط كان يكثر من مجالسة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل . وكان أبى ابن خلف صديقه فعاتبه ، وقال له : صبأت . فقال : لاوالله ولـكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له فقال : لاأرضى منك إلا أن تأتيه ، فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه . فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك . فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا ألقاك خارج مكة إلا علوت رأسك بالسيف » فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله .

لقد كان شيطانا يضل ، أو كان عونا للشيطان « وكان الشيطان للانسان خذولا » يقوده إلى مواقف الخذلان ، ويخذله عند الجد ، وفى مواقف الهول والكرب ..

وهكذا راح القرآن يهز قلوبهم هزا بهذه المشاهد المزلزلة ، التى تجسم لهم مصيرهم المخيف ، وتريهم إياه واقعا مشهودا ، وهم بعد فى هذه الأرض ، يكذبون بلقاء الله ، ويتطاولون على مقامه دون توقير ، ويقترحون الاقتراحات المستهترة والهول المرعب ينتظرهم هناك والندم الفاجع بعد فوات الأوان .

* * *

وبعد هذه الجولة فى اليوم العسير يعود بهم إلى الأرض يستعرض موقفهم مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — واعتراضاتهم على طريقة تنزيل القرآن . ثم ينهى هذه الجولة بمشهدهم كذلك يوم الحشر والنشور :

« وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا . وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ، وكفى بربك هاديا ونصيرا . وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » ..

لقد هجروا القرآن الذى نزله الله على عبده لينذرهم . ويبصرهم . هجروه فلم يفتحوا له أسماعهم إذ كانوا يتقون أن يجتذبهم فلا يملكون لقلوبهم عنه ردا . وهجروه فلم يتدبروه ليدركوا الحق من خلاله ، ويجدوا الهدى على نوره . وهجروه فلم يجعلوه دستور حياتهم ، وقد جاء ليكون منهاج حياة يقودها إلى أقوم طريق :

« وقال الرسول : يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا »

وإن ربه ليعلم ؛ ولكنه دعاء البث والإنابة ، يشهد به ربه على أنه لم يأل جهدا ، ولكن قومه لم يستمعوا لهذا القرآن ولم يتدبروه .

فيسليه ربه ويعزيه . فتلك هى السنة الجارية قبله فى جميع الرسالات . فلكل نبى أعداء يهجرون الهدى الذى يجيئهم به ، ويصدون عن سبيل الله . ولكن الله يهدى رسله إلى طريق النصر على أعدائهم المجرمين :

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين . وكفى بربك هاديا ونصيرا » . .

ولله الحكمة البالغة. فإن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوى عودها ؛ ويطبعها بطابع الجد الذى يناسب طبيعتها . وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها — مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق — هو الذى يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة ؛ وهو الذى يمحص القائمين عليها ، ويطرد الزائفين منهم ؛ فلا يبقى بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة ، التى لا تبتغى مغانم قريبة . ولا تريد إلا الدعوة خالصة ، تبتغى بها وجه الله تعالى .

ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة ، تسلك طرقا ممهدة مفروشة بالأزهار ، ولا يبرز لها فى الطريق خصوم ومعارضون ، ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون ، لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة ، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل ، ووقعت البلبلة والفتنة. ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات ، هو الذى يجعل الكفاح لانتصارها حتما مقضيا ، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقودا . فلا يكافح ويناضل ، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون ، الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع ، وأعراض الحياة الدنيا . بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا فى سبيلها . ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عودا ، وأشدهم إيمانا ، وأكثرهم تطلعا إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس .. عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل .وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء . وعندئذ تمضى دعوة الحق فى طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها ، واجتازوا امتحانها وبلاءها . أولئك هم الأمناء عليها الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته . وقد نالوا هذا النصر بثمنه الغالى ، وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين . وقد علمتهم التجارب والابتلاءات كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور . وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم ومقدراتهم ، فنما رصيدهم من القوة وذخيرتهم من المعرفة . فيكون هذا كله رصيدا للدعوة التى يحملون رايتها على السراء والضراء .

والذى يقع غالبا أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات ؛ حتى إذا تضخم رصيد التضحيات والآلام فى صف أصحاب الدعوات ، وهم ثابتون على دعوتهم ، ماضون فى طريقهم ، قالت الكثرة المتفرجة أو شعرت أنه لا يمسك أصحاب

الدعوة على دعوتهم على الرغم من التضحيات والآلام ، إلا أن فى هذه الدعوة ما هو أغلى مما يضحون به وأثمن . . وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ما هو هذا العنصر الغالى الثمين الذى يرجح كل أعراض الحياة ، ويرجح الحياة ذاتها عند أصحاب الدعوة . وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجاً فى هذه العقيدة بعد طول التفرج بالصراع !

من أجل هذا كله جعل الله لكل نبي عدواً من المجرمين ؛ وجعل المجرمين يقفون فى وجه دعوة الحق ، وحملة الدعوة يكافحون المجرمين ، فيصيبهم ما يصيبهم وهم ماضون فى الطريق ، والنهاية مقدرة من قبل ، ومعروفة لا يخطئها الواثقون بالله . إنها الهداية إلى الحق ، والانتهاء إلى النصر : « وكفى بربك هاديا ونصيرا » .

وبروز المجرمين فى طريق الأنبياء أمر طبيعي . فدعوة الحق إنما تجيء فى أوانها لعلاج فساد واقع فى الجماعة أو فى البشرية . فساد فى القلوب ، وفساد فى النظم ، وفساد فى الأوضاع . ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون ، الذين ينشئون الفساد من ناحية ، ويستغلونه من ناحية . والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد ، وتتنفس شهواتهم فى جوه الوبيء . والذين يجدون فيه سنداً للقيم الزائفة التى يستندون هم فى وجودهم إليها . . فطبيعي إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعا عن وجودهم ، واستبقاء للجو الذى يملكون أن يتنفسوا فيه . وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة ، ولا يستطيع الحياة إلا فى القاذر ، وبعض الديدان يموت فى الماء الطاهر الجارى ، ولا يستطيع الحياة إلا فى المستنقع الآسن . وكذلك المجرمون . . فطبيعي إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق ، يستميتون فى كفاحها . وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق فى النهاية ، لأنها تسير مع خط الحياة ، وتتجه إلى الأفق الكريم الوضيء الذى تتصل فيه بالله ، والذى تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما أراده الله . . « وكفى بربك هادياً ونصيرا » . .

ثم يمضى فى استعراض مقولات المجرمين الذين يقفون فى وجه دعوة القرآن ، والرد عليها:

« وقال الذين كفروا : لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » . .

ولقد جاء هذا القرآن ليربى أمة ، وينشىء مجتمعا ، ويقيم نظاما . والتربية تحتاج إلى زمن

وإلى تأثر وانفعال بالـكلمة ، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع . والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد . إنما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج ؛ و تتدرج فى مراقيه رويدا رويدا ، وتعتاد على حمل تـكاليفه شيئا فشيئا ، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخما ثقيلا عسيرا . وهى تنمو فى كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح فى اليوم التالى أكثر استعدادا للانتفاع بالوجبة التالية ، وأشد قابلية لها والتذاذاً بها .

ولقد جاء القرآن بمنهـاج كامل شامل للحياة كلها . وجاء فى الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها . فجاء لذلك منجما وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة ، وهى فى طريق نشأتها ونموها ، ووفق استعدادها الذى ينمو يوما بعد يوم فى ظل المنهج التربوى الإلهى الدقيق . جاء ليـكون منهج تربية ومنهاج حياة لا ليـكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة . جاء لينفذ حرفا حرفا وكلمة كلمة ، وتـكليفا تـكليفا . جاء لتـكون آياته هى « الأوامر اليومية » التى يتلقاها المسلمون فى حينها ليعملوا بها فور تلقيها ، كما يتلقى الجندى فى ثكنته أو فى الميدان « الأمر اليومى » مع التأثر والفهم والرغبة فى التنفيذ ؛ ومع الانطباع والتـكيف وفق ما يتلقاه ..

من أجـل هذا كله نزل القرآن مفصلا . يبين أول ما يبين عن منهجه لقلب الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ويثبته على طريقه ؛ ويتتابع على مراحل الطريق رتلا بعد رتل ، وجزءا بعد جزء :

« كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » .

. والترتيل هنا هو التتابع والتوالى وفق حكمة الله وعلمه بحاجات تلك القلوب واستعدادها للتلقى . .

ولقد حقق القرآن بمنهجه ذاك خوارق فى تـكييف تلك النفوس التى تلقته مرتلا متتابعا ، وتأثرت به يوما يوما ، وانطبعت به أثرا أثرا . فلما غفل المسلمون عن هذا المنهج ، واتخذوا القرآن كتاب متاع للثقافة ، وكتاب تعبد للتلاوة ، فحسب ، لا منهج تربية للانطباع والتـكيف ومنهج حياة للعمل والتنفيذ . لم ينتفعوا من القرآن بشىء ، لأنهم خرجوا عن منهجه الذى رسمه العليم الخبير . .

ويمضى فى تثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتطمينه على إمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا له بابا من الجدل ، وكلما اقترحوا عليه اقتراحا ، أو اعترضوا عليه اعتراضا :

« ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » . .

وإنهم ليجادلون بالباطل ، والله يرد عليهم باطلهم بالحق الذى يدمغه . والحق هو الغاية التى يريد القرآن تقريرها ، وليس مجرد الانتصار فى الجدل ، ولا الغلب فى المحاجة . إنما هو الحق القوى بنفسه ، الواضح الذى لا يتلبس به الباطل .

والله سبحانه يعد رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعون فى كل جدل يقوم بينه وبين قومه. فهو على الحق ، والله يمده بالحق الذى يعفى على الباطل . فأنى يقف جدلهم لحجة الله البالغة ؟ وأنى يقف باطلهم للحق الدامغ الذى يتنزل من عند الله ؟

وتنتهى هذه الجولة بمشهدهم يحشرون على وجوههم يوم القيامة ، جزاء تأبيهم على الحق ، وانقلاب مقاييسهم ومنطقهم فى جدلهم العقيم :

« الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم . أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » . .

ومشهد الحشر على الوجوه فيه من الإهانة والتحقير والانقلاب ، ما يقابل التعالى والاستكبار والإعراض عن الحق . وهو يضع هذا المشهد أمام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعزية له عما يلقاه منهم . ويضعه أمامهم تحذيراً لهم مما ينتظرهم . وهو مشهد مجرد عرضه يذل كبرياءهم ويزلزل عنادهم ، ويهز كيانهم . وقد كانت هذه الإنذارات تهزهم هزا ، ولكنهم يتحاملون على أنفسهم ويظلون معاندين .

* * *

ثم يجول بهم جولة فى مصارع المكذبين من السابقين :

« ولقد آتينا موسى الكتاب ، وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ؛ فقلنا : اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما . وعادا وثمود وأصحاب الرس ، وقرونا بين ذلك كثيرا. وكلا ضربنا له الأمثال ، وكلا تبرنا تتبيرا . ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء ؟ أفلم يكونوا يرونها ؟ بل كانوا لا يرجون نشورا » ..

إنها أمثلة مختصرة سريعة ترسم مصائر المكذبين :

فهذا موسى يؤتى الكتاب ويرسل معه أخوه هارون وزيرا ومعينا. ويؤمر بمواجهة «القوم الذين كذبوا بآياتنا» ذلك أن فرعون وملأه كانوا مكذبين بآيات الله — حتى قبل إرسال موسى وهارون إليهم ، فآيات الله قائمة دائمة ، والرسل إنما يذكرون بها الغافلين .. وقبل أن تتم الآية الثانية فى السياق يرسم مصيرهم فى عنف وإجمال « فدمرناهم تدميرا » .

وهؤلاء قوم نوح : « لما كذبوا الرسل أغرقناهم » .. وهم كذبوا نوحا وحده . ولكن نوحا إنما جاءهم بالعقيدة الواحدة التى أرسل بها الرسل جميعا . فلما كذبوه كانوا قد كذبوا الرسل جميعا . « وجعلناهم للناس آية » فإن آية الطوفان لا تنسى على الدهر ، وكل من نظر فيها اعتبر إن كان له قلب يتدبر « وأعتدنا للظالمين عذابا أليما » فهو حاضر لا يحتاج إلى إعداد. ويظهر لفظ الظالمين بدل الضمير لإثبات هذا الوصف لهم وبيان سبب العذاب . وهؤلاء عاد وثمود وأصحاب الرس [1] والقرون الكثيرة بين ذلك . كلهم لاقوا ذات المصير بعد أن ضربت لهم الأمثال ، فلم يتدبروا القول ، ولم يتقوا البوار والدمار ...

وهذه الأمثلة كلها من قوم موسى ونوح ، وعاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك ، ومن القرية التى أمطرت مطر السوء — وهى قرية لوط — كلها تسير سيرة واحدة وتنتهى نهاية واحدة « وكلا ضربنا له الأمثال » للعظة والاعتبار « وكلا تبرنا تتبيرا » وكانت عاقبة التكذيب هى التحطيم والتفتيت والدمار . والسياق يستعرض هذه الأمثلة ذلك الاستعراض السريع لعرض هذه المصارع المؤثرة . وينهيها بمصرع قوم لوط وهم يمرون عليه فى سدوم فى رحلة الصيف إلى الشام . وقد أهلكها الله بمطر بركانى من الأبخرة والحجارة فدمرها تدميرا. ويقرر فى نهايته أن قلوبهم لا تعتبر ولا تتأثر لأنهم لا ينتظرون البعث ، ولا يرجون لقاء الله . فذلك سبب قساوة تلك القلوب . وانطماسها . ومن هذا المعين تنبع تصرفاتهم واعتراضاتهم وسخرياتهم من القرآن ومن الرسول .

* * *

---

(١) البئر المطوية أى التى لم تبن حوائطها وقيل إن أصحابها كانوا بقرية باليمامة فقتلوا نبيهم . واختار ابن جرير أنهم أصحاب الأخدود الذين حرقوا المؤمنين فيه وقد ذكروا فى سورة البروج .

وبعد هذ الاستعراض السريع يجىء ذكر استهزائهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد سبقه تطاولهم على ربهم ، واعتراضهم على طريقة تنزيل القرآن . وسبقه كذلك مشاهدهم المفجعة فى يوم الحشر ، ومصارع المكذبين أمثالهم فى هذه الأرض .. كل أولئك تطبيبا لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ذكر استهزائهم به وتوقحهم عليه . ثم يعقب عليه بتهديدهم وتحقيرهم وتنزيلهم إلى أحط من درك الحيوان .

« وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا . أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ؟ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » .

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم ملء السمع والبصر بين قومه قبل بعثته . فقد كان عندهم ذا مكانة من بيته وهو من ذروة بنى هاشم وهم ذروة قريش . وكان عندهم ذا مكانة من خلقه وهو الملقب بينهم بالأمين . ولقد ارتضوا حكومته بينهم فى وضع الحجر الأسود قبل البعثة بزمن طويل . ويوم دعاهم على الصفا فسألهم أيصدقونه لو أخبرهم أن خيلا بسفح هذا الجبل قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم .

ولكنهم بعد البعثة وبعد أن جاءهم بهذا القرآن العظيم راحوا يهزأون به ويقولون : « أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ » وهى قولة ساخرة مستنكرة .. أكان ذلك عن اقتناع منهم بأن شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية ، وأن ماجاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء؟ كلا . إنما كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة ومن أثر هذا القرآن الذى لا يقاوم . وكانت وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التى تهددهم فى مراكزهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية ، وتجردهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التى تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع .

ولقد كانوا يعقدون المؤتمرات لتدبير المؤامرات المحبوكة ، ويتفقون فيها على مثل هذه الوسيلة وهم يعلمون كذبهم فيها عن يقين :

روى ابن إسحاق أن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ـ وكان ذا سن فيهم ـ وقد حضر الموسم ـ موسم الحج ـ فقال لهم : يامعشر قريش : إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن

وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا . قالوا : فأنت ياأبا عبدشمس ، فقل وأقم لنا رأيا نقول به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع .قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن . لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : إنه مجنون قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله طلاوة ، وإن أصله لعذق [1] ، وإن فرعه لجناة [2] وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .. فتفرقوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره .

فهذا مثل من الكيد والتدبير يشى بحيرة القوم فى المؤامرات ضد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومعرفتهم بحقيقته فى الوقت ذاته . فما كان اتخاذهم إياه هزوا ، وقولهم ساخرين: «أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ » بصورة الاستغراب والاستنكار والزراية إلا طرفا من تلك المؤامرات المدبرة لا ينبعث عن حقيقة شعورية فى نفوسهم ، إنما يتخذ وسيلة للحط من قدره فى أعين الجماهير ، التى يحرص سادة قريش على استبقائها تحت وصايتهم الدينية ، استبقاء للمراكز الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية التى يتمتعون بها فى ظل تلك الوصاية ! شأن قريش فى هذا شأن أعداء دعوات الحق ودعاتها فى كل زمان وفى كل مكان .

وبينما كانوا يظهرون الهزؤ والاستخفاف كانت أقوالهم ذاتها تشى بمقدار ما فى نفوسهم من شخصه ومن حجته ومن القرآن الذى جاء به ، فيقولون :

« إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها » ..

---

(١) أى نخلة . يشبهه بالنخلة ثبت أصلها .

(٢) أى يحمل الجنى أى الثمار الناضجة.

فلقد زلزل قلوبهم إذن باعترافهم حتى كادوا يتركون آلهتهم وعبادتهم ـ على شدة حرصهم على استبقاء دياناتهم وما وراءها من مراكز ومغانم ـ لولا أنهم قاوموا تأثرهم به وصبروا على آلهتهم ! والصبر لا يكون إلا على المقاومة العنيفة للجاذبية العنيفة . وهم يسمون الهداية إضلالا لسوء تقديرهم للحقائق وتقويمهم للقيم . ولكنهم لا يملكون إخفاء الزلزلة التى أصابت قلوبهم من دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشخصيته والقرآن الذى معه حتى وهم يتظاهرون بالاستخفاف بشخصه ودعوته ، إصرارا وعنادا . ومن ثم يعاجلهم بالتهديد المجمل الرهيب :

« وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا » .

فيعلمون إن كان ما جاءهم به هو الهدى أو أنه هو الضلال . ولكن حين لا ينفع العلم ، حين يرون العذاب . سواء أكان ذلك فى الدنيا كما ذاقوا يوم بدر ، أم كان فى الآخرة كما يذوقون يوم الحساب .

ويلتفت بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعزيه عن عنادهم وجموحهم واستهزائهم ، فهو لم يقصر فى الدعوة ، ولم يقصر فى الحجة ، ولم يستحق ما لاقوه به من التطاول ، إنما العلة فيهم أنفسهم . فهم يجعلون من هواهم إلها يعبدونه ، ولا يرجعون إلى حجة أو برهان . وماذا يملك الرسول لمن يتخذ إلهه هواه :

« أرأيت من اتخذ إلهه هواه . أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ » ..

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية بارزة ، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ، وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تقتنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذى جعلت منه إلها يعبد ويطاع .

والله ـ سبحانه ـ يخاطب عبده فى رفق ومودة وإيناس فى أمر هذا النموذج من الناس : « أرأيت ؟ » ويرسم له هذه الصورة الناطقة المعبرة عن ذلك النموذج الذى لا جدوى من المنطق معه ، ولا وزن للحجة ، ولا قيمة للحقيقة ؛ ليطيب خاطره من مرارة الإخفاق فى هدايته . فهو غير قابل للهدى ، وغير صالح لأن يتوكل الرسول بأمره ، ولا أن يحفل بشأنه : « أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ » ..

ثم يخطو خطوة أخرى فى تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم ، ويحكمون شهواتهم ، ويتنكرون للحجة والحقيقة ، تعبدا لذواتهم وهواها وشهواتها . يخطو خطوة أخرى فيسويهم بالأنعام التى لا تسمع ولا تعقل . ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام إلى درك أسفل وأحط :

« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام . بل هم أضل سبيلا » .

وفى التعبير تحرز وإنصاف ، إذ يذكر « أكثرهم » ولا يعمم ، لأن قلة منهم كانت تجنح إلى الهدى ، أو تقف عند الحقيقة تتدبرها . فأما الكثرة التى تتخذ من الهوى إلها مطاعا ، والتى تتجاهل الدلائل وهى تطرق الأسماع والعقول ، فهى كالأنعام . وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك ، والتكيف وفق مايتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع ، ووقوف عند الحجة والاقتناع . بل إن الإنسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكونن أحط من البهيمة ، لأن البهيمة تهتدى بما أودعها الله من استعداد ، فتؤدى وظائفها أداء كاملا صحيحا . بينما يهمل الإنسان ماأودعه الله من خصائص ، ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة :

« إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » ..

وهكذا يعقب على استهزائهم برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذلك التعقيب الذى يخرج المستهزئين من إطار الآدمية فى عنف واحتقار ومهانة .

وهكذا ينتهى الشوط الثانى فى السورة .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ، ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ، وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا * وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا .

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ، فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً * وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ ، وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيرًا .

« وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ؛ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً * وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْرًا ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا .

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، ٱلرَّحْمَانُ ، فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا : وَمَا ٱلرَّحْمَانُ ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ؟ وَزَادَهُمْ نُفُوراً .

« تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً ، وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً » . .

فى هذا الشوط يدع مقولات المشركين وجدالهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبدأ جولة فى مشاهد الكون ومجاليه ، يوجه إليها قلب الرسول ويصل بها مشاعره . وهذا الاتصال كاف وحده ليدفع خاطره عن مضايقات المشركين الصغيرة ؛ ويفتح قلبه على تلك الآفاق الوسيعة التى يتضاءل معها كيد الكائدين وعدواة المجرمين . .

والقرآن يوجه القلوب والعقول دائما إلى مشاهد هذا الكون ؛ ويربط بينها وبين العقول والقلوب . ويوقظ المشاعر لاستقبالها بحس جديد متفتح ، يتلقى الأصداء والأضواء ،

وينفعل بهـا ويستجيب ، ويسير فى هذا الـكون ليلتقط الآيات المبثوثة فى تضاعيفه ، المنثورة فى أرجائه ، المعروضة فى صفحاته ، ويرى فيها يد الصانع المدبر ، ويستشعر آثار هذه اليد فى كل ماتقع عليه عينه ، وكل مايلمسه حسه ، وكل مايلتقطه سمعه ؛ ويتخذ من هـذا كله مادة للتدبر والتفـكر ، والاتصال بالله ، عن طريق الاتصال بما صنعت يداه .

وحين يعيش الإنسان فى هـذا الـكون مفتوح العين والقلب ، مستيقظ الحس والروح ، موصول الفـكر والخاطر ؛ فإن حياته ترتفع عن ملابسات الأرض الصغيرة ، وشعوره بالحياة يتسامى ويتضاعف معاً . وهو يحس فى كل لحظة أن آفاق الـكون أفسح كثيرا من رقعة هذه الأرض ؛ وأن كل مايشهده صادر عن إرادة واحـدة ، مرتبط بناموس واحد ، متجه إلى خالق واحـد ؛ وإن هو إلا واحـد من هذه المخلوقات الـكثيرة المتصلة بالله ؛ ويد الله فى كل ماحوله ، وكل ماتقع عليه عينه ، وكل ماتلمسه يداه .

إن شعوراً من التقوى ، وشعورا من الأنس، وشعورا من الثقة لتمتزج فى حسه ، وتفيض على روحه ، وتعمر عالمه ، فتطبعه بطابع خاص من الشفافية والمودة والطمأنينة فى رحلته على هذا الـكوكب حتى يلقى الله . وهو يقضى هذه الرحلة كلها فى مهرجان من صنع الله وعلى مائدة من يد الصانع المدبر الجميل التنسيق .

وفى هذا الدرس ينتقل السياق من مشهد الظل اللطيف ، ويد الله تمده ثم تقبضه فى يسر ولطف . إلى مشهد الليل وما فيه من نوم وسبات ، والنهار وما فيه من حركة وانبعاث . إلى مشهد الرياح تبشر بالرحمة ثم يعقبها المـاء المحيي للموات . إلى مشهد البحرين الفرات والأجاج وبينهما برزخ يمنعهما ويحجز بينهما فلا يختلطان. ومن ماء السماء إلى ماء النطفة ، وإذا هو بشر يصرف الحياة . إلى مشهد خلق السماوات والأرض فى ستة أيام . إلى مشهد البروج فى السماء وما فيهـا من سراج مضىء وقمر منير . إلى مشهـد الليل والنهـار يتعاقبـان على مدار الزمان .

وفى خلال هذه المشاهد الموحية يوقظ القلب وينبه العقل إلى تدبر صنع الله فيهـا ؛ ويذكر بقدرته وتدبيره ؛ ويعجب معه إشراك المشركين ، وعبادتهم مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وجهلهم بربهم وتطاولهم عليه ، وتظاهرهم على الـكفر والجحود والنـكران . فإذا هو تصرف عجيب مريب فى وسط هذا الحشد المعروض من آيات الله ، ومشاهد الـكون الذى خلقه الله .

فلنعش نحن لحظات فى ذلك المهرجان الذى يدعونا الخالق البارىء المصور إليه فى طول الحياة .

***

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ـ ولو شاء لجعله ساكنا ـ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » . .

إن مشهد الظل الوريف اللطيف ليوحى إلى النفس المجهودة المكدودة بالراحة والسكن والأمان . وكأنما هو اليد الآسية الرحيمة تنسم على الروح والبدن ، وتمسح على القرح والألم ، وتهدهد القلب المتعب المكدود ... أفهذا الذى يريده الله سبحانه وهو يوجه قلب عبده إلى الظل بعد ما ناله من استهزاء ولأواء ؟ وهو يمسح على قلبه المتعب فى هذه المعركة الشاقة ، وهو فى مكة يواجه الكفر والكبر والمكر والعناد ، فى قلة من المؤمنين وكثرة من المشركين ؟ ولم يؤذن له بعد فى مقابلة الاعتداء بمثله وفى رد الأذى والتهجم والاستهزاء ؟ ! إن هذا القرآن الذى كان يتنزل على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان هو البلسم المريح ، والظل الظليل ، والروح المحيى فى هجير الكفر والجحود والعصيان . وإن الظل ـ وبخاصة فى هجير الصحراء المحرق ـ لهو المشهد الذى يتناسق مع روح السورة كلها وما فيها من أنداء وظلال .

والتعبير يرسم مشهد الظل ويد الله الخفية التدبير تمده فى رفق ، وتقبضه فى لطف : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ؟ » . . « ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » . .

والظل هو ما تلقيه الأجرام من الظلمة الخفيفة حين تحجب أشعة الشمس فى النهار . وهو يتحرك مع حركة الأرض فى مواجهة الشمس ، فتتغير أوضاعه وامتداداته وأشكاله ؛ والشمس تدل عليه بضوئها وحرارتها ، وتميز مساحته وامتداده وارتداده . ومتابعة خطوات الظل فى مده وانقباضه يشيع فى النفس نداوة وراحة كما يثير فيها يقظة لطيفة شفيفة ، وهى تتتبع صنع البارىء اللطيف القدير .. وإن مشهد الظلال والشمس مائلة للمغيب ، وهى تطول وتطول ، وتمتد وتمتد . ثم فى لحظة . لحظة واحدة ينظر الإنسان فلا يجدها جميعا . لقد اختفى قرص الشمس وتوارت معه الظلال . أين تراها ذهبت ؟ لقد قبضتها اليد الخفية التى مدتها. لقد انطوت كلها فى الظل الغامر الطامى . ظل الليل والظلام !

إنها يد القدرة القوية اللطيفة . التى يغفل البشر عن تتبع آثارها فى الكون من حولهم وهى تعمل دائبة لايدركها الكلال .

« ولو شاء لجعله ساكنا » .. فبناء الكون المنظور على هذا النسق ، وتنسيق المجموعة الشمسية هذا التنسيق هو الذى جعل الظل متحركا هذه الحركة اللطيفة . ولو اختلف ذلك النسق أقل اختلاف لاختلفت آثاره فى الظل الذى نراه . لوكانت الأرض ثابتة لسكن الظل فوقها لايمتد ولا يقبض . ولو كانت سرعتها أبطأأو أسرع مما هى عليه لكان الظل فى امتداده وقبضه أبطأ أو أسرع. فتنسيق الكون المنظور على ناموسه هذا هوالذى يسمح بظاهرةالظل ، ويمنحها خواصها التى نراها .

وهذا التوجيه إلى تلك الظاهرة التى نراها كل يوم ، ونمر بها غافلين ، هو طرف من منهج القرآن فى استحياء الكون دائمافى ضمائرنا ، وفى إحياء شعورنابالكون من حولنا ،وفى تحريك خوامد إحساسنا التى أفقدها طول الألفة إيقاع المشاهد الكونية العجيبة . وطرف من ربط العقول والقلوب بهذا الكون الهائل العجيب ...

***

ومن مشهد الظل إلى مشهد الليل الساتر ، والنوم الساكن ، والنهار وما فيه من حركة ونشور :

« وهو الذى جعل الليل لباسا ، والنوم سباتا ؛ وجعل النهار نشورا » . .

والليل يستر الأشياء والأحياء فتبدو هذه الدنيا وكأنها تلبس الليل وتتشح بظلامه فهو لباس . وفى الليل تنقطع الحركة ويسكن الدبيب وينام الناس وكثير من الحيوان والطيور والهوام . والنوم انقطاع عن الحس والوعى والشعور . فهو سبات . ثم يتنفس الصبحوتنبعث الحركة ، وتدب الحياة فى النهار . فهو نشور من ذلك الموت الصغير ، الذى يتداول الحياة على هذه الأرض مع البعث والنشور مرة فى كل دورة من دورات الأرض الدائبة التى لا يصيبها الكلال . وهى تمر بالبشر وهم غافلون عما فيها من دلالة على تدبير الله ، الذى لا يغفل لحظة ولا ينام .

* * *

ثم ظاهرة الرياح المبشرة بالمطر وما يبثه من حياة :

« وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيي به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا » . .

والحياة على هذه الأرض كلها تعيش على ماء المطر إما مباشرة ، وإما بما ينشئه من جداول وأنهار على سطح الأرض . ومن ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة إلى باطن الأرض منه ، ولكن الذين يعيشون مباشرة على المطر هم الذين يدركون رحمة الله الممثلة فيه إدراكا صحيحا كاملا . وهم يتطلعون إليه شاعرين بأن حياتهم كلها متوقفة عليه ، وهم يترقبون الرياح التى يعرفونها تسوق السحب ، ويستبشرون بها ؛ ويحسون فيها رحمة الله — إن كانوا ممن شرح الله صدورهم للإيمان .

والتعبير يبرز معنى الطهارة والتطهير : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » وهو بصدد ما فى الماء من حياة . « لنحيي به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيرا » فيلقى على الحياة ظلا خاصا . ظل الطهارة . فالله سبحانه أراد الحياة طاهرة نقية وهو يغسل وجه الأرض بالماء الطهور الذى ينشئ الحياة فى الموات ويسقى الأناسى والأنعام .

* * *

وعند هـذا المقطع من استعراض المشاهد الكونية يلتفت إلى القرآن النازل من السماء كذلك لتطهير القلوب والأرواح ؛ وكيف يستبشرون بالماء المحيي للأجسام ولا يستبشرون بالقرآن المحيي للأرواح :

« ولقد صرفناه [١] بينهم ليذكروا ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » .

« ولقد صرفناه بينهم ليذكروا » .. فعرضناه عليهم فى صور شتى ، وأساليب متعددة ،

---

(١) بعض المفسرين يرجع الضمير فى « صرفناه » إلى الماء بوصفه أقرب مذكور فى العبارة . ولأن القرآن لم يذكر فى هذا المقام. ولكننا نرجح أن الضمير عائد على القرآن ، لأنه لاشك فى أن قوله: « وجاهدهم به » يعنى القرآن فهو لايجاهدهم بالماء. والذى يجعل الضمير الثانى راجعا إلى القرآن يجعل الضمير الأول كذلك . إنما هى التفاتة من التفاتات القرآن الكثيرة بمناسبة مضمرة ملحوظة. هذه المناسبة هنا هى إنزال الماء الطهور المحيي ، التى ترد الذهن إلى إنزال القرآن المطهر المحيي الذى تدور السورة كلها عليه .

ولفتات متنوعة؛ وخاطبنا به مشاعرهم ومداركهم ، وأرواحهم وأذهانهم ؛ ودخلنا عليهم به من كل باب من أبواب نفوسهم ، وبكل وسيلة تستجيش ضمائرهم . . « ليذكروا » . . فما يحتاج الأمر إلى أكثر من التذكر . والحقيقة التي يحاول القرآن ردهم إليها مركوزة في فطرتهم ، أنساهم إياها الهوى الذي اتخذوا منه إلها . . « فأبى أكثر الناس إلا كفورا » .

ومهمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — إذن ضخمة شاقة ؛ وهو يواجه البشرية كلها وأكثرها أضله الهوى ، وأبى إلا الكفر ودلائل الإيمان حاضرة . .

« ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا » .

فتوزع المشقة ، وتخف المهمة . ولكن الله اختار لها عبدا واحدا ، هو خاتم الرسل ؛ وكلفه إنذار القرى جميعا ، لتتوحد الرسالة الأخيرة ، فلا تتفرق على ألسنة الرسل في القرى المتفرقة ، وأعطاه القرآن ليجاهدهم به :

« فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » . .

وإن في هذا القرآن من القوة والسلطان ، والتأثير العميق ، والجاذبية التي لا تقاوم ، ما كان يهز قلوبهم هزا ، ويزلزل أرواحهم زلزالا شديدا ؛ فيغالبون أثره بكل وسيلة فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلا .

ولقد كان كبراء قريش يقولون للجماهير : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . وكانت هذه المقالة تدل على الذعر الذي تضطرب به نفوسهم ونفوس أتباعهم من تأثير هذا القرآن ؛ وهم يرون هؤلاء الأتباع كأنما يسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين ، والسورة والسورتين ، يتلوهما محمد ابن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — فتنقاد إليه النفوس ، وتهوى إليه الأفئدة .

ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم وأشياعهم هذه المقالة ، وهم في نجوة من تأثير هذا القرآن . فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزة روعتهم ما أمروا هذا الأمر ، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير ، الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير !

قال ابن إسحاق : حدثني محمد ابن مسلم ابن شهاب الزهري أنه حُدّث : أن أبا سفيان ابن حرب ، وأبا جهل ابن هشام ، والأخنس ابن شريق ابن عمرو ابن وهب الثقفي حليف

بنى زهرة . . خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى من الليل فى بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ! ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ! ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ! فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

« فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه . ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ؟ وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به .

« قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! !

« قال : فقام عنه الأخنس وتركه » .

فهكذا كانوا يغالبون أنفسهم أن تهفو إلى هذا القرآن فتغلبهم ، لولا أن يتعاهدوا وهم يحسون ما يتهدد زعامتهم ، لو اطلع عليهم الناس ، وهم مأخوذون شبه مسحورين !

وإن فى القرآن من الحق الفطرى البسيط ، لما يصل القلب مباشرة بالنبع الأصيل ، فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوار ، وأن يصد عنه تدفق التيار . وإن فيه من مشاهد القيامة ، ومن القصص ، ومن مشاهد الكون الناطقة ، ومن مصارع الغابرين ، ومن قوة التشخيص والتمثيل ، لما يهز القلوب هزا لا تملك معه قرارا . وإن السورة الواحدة لتهز الكيان الإنسانى

فى بعض الأحيان ، وتأخذ على النفس أقطارها ما لا يأخذه جيش ذو عدة وعتاد ! !

فلا عجب مع ذلك أن يأمر الله نبيه أن لايطيع الكافرين ، وألا يتزحزح عن دعوته وأن يجاهدهم بهذا القرآن . فإنما يجاهدهم بقوة لايقف لها كيان البشر ، ولا يثبت لها جدال أو محال .

***

وبعد هذه اللفتة يعود إلى مشاهد الكون ، فيعقب على مشهد الرياح المبشرة والماء الطهور، بمشهد البحار العذبة والملحة وما بينهما من حجاز :

« وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ؛ وجعل بينهما برزخا، وحجرا محجورا » . .

وهو الذى ترك البحرين ، الفرات العذب والملح المر ، يجريان ويلتقيان ، فلا يختلطان ولا يمتزجان ؛ إنما يكون بينهما برزخ وحاجز من طبيعتهما التى فطرها الله . فمجارى الأنهار غالبا أعلى من سطح البحر ، ومن ثم فالنهر العذب هو الذى يصب فى البحر الملح ، ولا يقع العكس إلا شذوذا. وبهذا التقدير الدقيق لايطغى البحر ـ وهو أضخم وأغزر ـ على النهر الذى منه الحياة للناس والأنعام والنبات . ولا يكون هذا التقدير مصادفة عابرة وهو يطرد هذا الاطراد . إنما يتم بإرادة الخالق الذى أنشأ هذا الكون لغاية تحققها نواميسه فى دقة وإحكام .

وقد روعى فى نواميس هذا الكون ألا تطغى مياه المحيطات الملحة لا على الأنهار ولا على اليابسة حتى فى حالات المد والجزر التى تحدث من جاذبية القمر للماء الذى على سطح الأرض ، ويرتفع بها الماء ارتفاعا عظيما .

يقول صاحب كتاب : الإنسان لايقوم وحده (العلم يدعو إلى الإيمان) :

« يبعد القمر عنا مسافة مئتين وأربعين ألفا من الأميال ، ويذكرنا المد الذى يحدث مرتين تذكيرا لطيفا بوجود القمر . والمد الذى يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدما فى بعض الأماكن . بل إن قشرة الأرض تنحنى مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر . ويبدو لنا كل شىء منتظما لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التى ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتنحنى قشرة الأرض التى تبدو لنا صلبة للغاية .

« والمريخ له قمر . قمر صغير . لايبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال . ولوكان قمرنا يبعد

عنا خمسين ألف ميل مثلا ، بدلا من المسافة الشاسعة التى يبعد بها عنا فعلا ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضى التى تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها. وفى هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعةاللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المد الذى فى الهواء يُحدث أعاصير كل يوم .

« وإذا فرضنا أن القارات قد اكتسحت ، فإن معدل عمق الماء فوق الكرة الأرضية كلها يكون نحو ميل ونصف . وعندئذ ما كانت الحياة لتوجد إلا فى أعماق المحيط السحيقة على وجه الاحتمال ! »

ولكن اليد التى تدبر هذا الكون مرجت البحرين وجعلت بينهما برزخا وحاجزا من طبيعتهما ومن طبيعة هذا الكون المتناسق الذى تجرى مقاديره بيد الصانع المدبر الحكيم ، هذا الجرى المقدر المنسق المرسوم .

* * *

ومن ماء السماء وماء البحر والنهر إلى ماء النطفة الذى تنشأ منه الحياة البشرية المباشرة :

« وهو الذى خلق من الماء بشرا ، فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا » ..

فمن هذا الماء يتخلق الجنين : ذكرا فهو نسب ، وأنثى فهو صهر ، بما أنها موضع للصهر .

وهذه الحياة البشرية الناشئة من هذا الماء أعجب وأضخم من تلك الحياة الناشئة من ماء السماء . فمن خلية واحدة (من عشرات الألوف الكامنة فى نقطة واحدة من ماء الرجل) تتحد ببويضة المرأة فى الرحم ، ينشأ ذلك الخلق المعقد المركب .. الإنسان .. أعجب الكائنات الحية على الإطلاق !

ومن الخلايا المتشابهة والبويضات المتشابهة ينشأ ذكور وإناث بطريقة عجيبة ، لا يدرك البشر سرها ، ولا يستطيع علم البشر ضبطها أو تعليلها . فما من خلية من آلاف الخلايا يمكن أن تلحظ فيها مميزات معروفة هى التى تؤهلها لأن تنتج ذكرا أو أنثى ، وما من بويضة كذلك لوحظ فيها مثل هذه الميزات . ومع ذلك تصير هذه إلى أن تكون رجلا ، وهذه إلى

أن تكون امرأة ، فى نهاية المطاف ! « وكان ربك قديرا » .. وهاهى ذى القدرة تكشف عن طرف منها فى هذا العجب العجاب !

ولو راح الإنسان يدقق فى هـذا الماء الذى يخلق منه الإنسان ، لأدركه الدوار وهو يبحث عن خصائص الإنسان الـكاملة الـكامنة فى الأجسام الدقيقة البالغة الدقة ، التى تحمل عناصر الوراثة للجنس كله ، وللأبوين وأسرتيهما القريبتين ، لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ماترسم له يد القدرة من خلق واتجاه فى طريق الحياة .

وهذه لمحات من كتاب : « الإنسان لا يقوم وحده » عن خصائص الوراثة الـكامنة فى تلك الذريرات الصغيرة :

« كل خليـة ذكرا أو أنثى . تحتوى على كروموزومات[1] وجينات (وحدات الوراثة) والـكروموزومة تكون النوية (نواة صغيرة) المعتمة التى تحتوى الجينة . والجينات هى العامل الرئيسى الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حى أو إنسان . والسيتو بلازم[2] هى تلك التركيبات الـكيماوية العجيبة التى تحيط بالاثنتين . وتبلغ الجينات (وحـدات الوراثة) من الدقة أنها ــ وهى المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعا ، التى على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها ــ لو جمعت كلها ووضعت فى مكان واحد ، لـكان حجمها أقل من حجم « الـكستبان » !

« وهـذه الجينات الميكرسكوبية البالغـة الدقة هى المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنباتات . « والـكستبان » الذى يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم . ومع ذلك فإن هذه هى الحقيقة التى لا جدال فيها .

« وإن الجنين وهو يخلص فى تطوره التدريجى من النطفة (البروتوبلازم) إلى الشبه الجنسى ، إنمـا يقص تاريخا مسجلا ، قد حفظ وعبر عنه بالتنظيم الذرى فى الجينات والسيتوبلازم .

... « لقد رأينا أن الجينات متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات ، فى خـلايا الوراثة بجميع الـكائنات الحية . وهى تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص

---

(١) الـكروموزوم هى وحدة المادة العضوية ، والعامل فى نقل الصفات الوراثية .

(٢) السيتوبلازم هى المادة البروتوبلازمية التى حول نواة الخلية .

التى لـكل شىء حى . وهى تتحكم تفصيلا فى الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لـكل نبات ، تماما كما تقرر الشكل ، والقشر ، والشعر ، والأجنحة لـكل حيوان بما فيه الإنسان » .

وبهذا القدر نكتفى من عجائب الحياة ، التى أودعتها إياها القدرة الخالقة المدبرة . « وكان ربك قديرا » ..

***

وفى مثل هـذا الجو . جو الخلق والتقدير . وأمام تلك الحياة الناشئة من ماء السماء وماء النطفة . المزودة بتلك الخصائص ، التى تجعل من خلية ذكرا بمميزاته كلها ووراثاته ، وتجعل من خلية أنثى بمميزاتها كذلك ووراثاتها .. فى مثل هـذا الجو تبدو عبادة غير الله شيئا مستغربا مستنكرا تشمئز منه الفطرة . . وهنا يعرض عباداتهم من دون الله .

« ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم . وكان الـكافر على ربه ظهيرا » ..

« وكان الـكافر على ربه ظهيرا » . . كل كافر ــ ومشركو مكة من ضمنهم ! ــ إنما هو حرب على ربه الذى خلقه وسواه . فـكيف ذلك ، وهو صغير ضئيل لا يبلغ أن يكون حربا ولا ضدا على الله ؟ إنه حرب على دينه . وحرب على منهجه الذى أراده للحياة . إنما يريد التعبير أن يفظع جريمته ويبشعها ، فيصوره حربا على ربه ومولاه !

فهو يحارب ربه حين يحارب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ورسالته، فلا على الرسول منه ، فإنما الحرب مع الله ، وهو به كفيل . ثم يطمئن الله عبده ، ويخفف العبء عن عاتقه ، ويشعره أنه حين يؤدى واجبه فى التبشير والإنذار ، وجهاد الـكفار بما معه من قرآن فلا عليه من عداء المجرمين له ولا عناد الـكافرين . والله يتولى عنه المعركة مع أعدائه الذين إنما يعادون الله . فليتوكل على ربه . والله أعلم بذنوب عباده !

« وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . قـل : ما أسألـكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا . وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيرا » .

وبهذا يحدد واجب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو التبشير والإنذار . ولم يكن بعد مأمورا بقتال المشركين وهو فى مكة لضمان حرية التبشير والإنذار كما أمر به بعد ذلك فى المدينة.

وذلك لحكمة يعلمها الله . نحدس منها أنه كان فى هذه الفترة يعد الرجال الذين ترتكز إليهم هذه العقيدة الجديدة ، وتعيش فى نفوسهم ، وتترجم فى حياتهم ، وتتمثل فى سلوكهم ، لكى يكونوا نواة المجتمع المسلم الذى يحكمه الإسلام ويهيمن عليه . ولكى لا يدخل فى خصومات وثارات دموية تصد قريشاً عن الإسلام ، وتغلق قلوبهم دونه ؛ والله يقدر أنهم سيدخلون فيه بعضهم قبل الهجرة وسائرهم بعد الفتح ، ويكون منهم نواة صلبة للعقيدة الخالدة بإذن الله .

على أن لب الرسالة بقى فى المدينة كما كان فى مكة هو التبشير والإنذار . إنما جعل القتال لإزالة الموانع المادية دون حرية الدعوة ، ولحماية المؤمنين حتى لا تكون فتنة ؛ فالنص صادق فى مكة وفى المدينة على السواء : « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » .

« قل : ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » . .

فليس للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مطمع فى أجر ولا عرض من أعراض الحياة الدنيا يناله ممن يهتدون إلى الإسلام . ليست هناك إتاوة ، ولا نذر ولا قربان يقدمه المسلم . وهو يدخل فى الجماعة المسلمة بكلمات ينطق بها لسانه ويعتقد بها قلبه . وهذه ميزة الإسلام . ميزته أن ليس هناك كاهن يتقاضى ثمن كهانته ، ولا وسيط يقبض ثمن وساطته ؛ ليس هنالك « رسم دخول » ولا ثمن لتناول سر ولا بركة ولا استقبال ! هذه هى بساطة هذا الدين وبراءته من كل ما يحول بين القلب والإيمان ؛ ومن كل ما يقف بين العبد وربه من وسطاء وكهان . . ليس هنالك سوى أجر واحد للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو اهتداء المهتدى إلى الله وتقربه إلى ربه بما يراه ! « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » . . هذا وحده هو أجره . . يرضى قلبه الطاهر ويستريح وجدانه النبيل أن يرى عبدا من عباد الله قد اهتدى إلى ربه ، فهو يبتغى رضاه ، ويتحرى طريقه ، ويتجه إلى مولاه .

« وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده » . .

وكل ما عدا الله ميت ، لأنه صائر إلى موت ، فلا يبقى إلا الحى الذى لا يموت . والتوكل على ميت ، تفارقه الحياة يوما طال عمره أم قصر ، هو ارتكان إلى ركن ينهار ، وإلى ظل يزول . إنما التوكل على الحى الدائم الذى لا يزول . . « وسبح بحمده » ولا يحمد إلا الله المنعم الوهاب . . ودع أمر الكفار الذين لا ينفعهم التبشير والإنذار إلى الحى الذى لا يموت فهو يعلم ذنوبهم ولا يخفى عليه منها شىء : « وكفى به بذنوب عباده خبيرا » .

وفى معرض الخبرة المطلقة والقـدرة على الجزاء يذكر خلق الله للسماوات والأرض ، واستعلاءه على العرش :

« الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمان ، فاسأل به خبيرا » .

وأيام الله التى خلق فيها السماوات والأرض غير أيامنا الأرضية قطعا . فإنما أيامنا هذه ظل للنظام الشمسى ، ومقياس لدورة فلكية وجدت بعد خلق السماوات والأرض . وهى مقيسة بقدر دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس . والخلق لا يقتضى إلا توجه الإرادة الإلهية المرموز له بلفظة : « كن » فتتم الكينونة « فيكون » . ولعل هذه الأيام الستة من أيام الله التى لا يعلم مقدارها إلا هو ـ إنما تمت فيها أطوار متباعدة فى السماوات والأرض حتى انتهت إلى وضعها الحالى . أما الاستواء على العرش فهو معنى الاستعلاء والسيطرة ولفظ « ثم » لا يدل على الترتيب الزمنى إنما يدل على بعد الرتبة . رتبة الاستواء والاستعلاء .

ومع الاستعلاء والسيطرة الرحمة الكبيرة الدائمة : « الرحمان » .. ومع الرحمة الخبرة : « فاسأل به خبيرا » الخبرة المطلقة التى لا يخفى عليها شىء . فإذا سألت الله ، فإنما تسأل خبيرا ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

* * *

ومع هذا فإن أولئك المتبجحين المتطاولين ، يقابلون الدعوة إلى عبادة الرحمان باستخفاف واستنكار :

« وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمان : قالوا : وما الرحمان ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا » !

وهى صورة كريهة من صور الاستهتار والتطاول ؛ تذكر هنا للتهوين من وقع تطاولهم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم لا يوقرون ربهم ، فيتحدثون بهذه اللهجة عن ذاته العلية. فهل يستغرب من هؤلاء أن يقولوا عن الرسول ما قالوا ؟ وهم ينفرون من اسم الله الكريم ، ويزعمون أنهم لا يعرفون اسم « الرحمان » ويسألون عنه بما ، زيادة فى الاستهتار . « قالوا : وما الرحمان ؟ » . ولقد بلغ من تطاولهم واستخفافهم أن يقولوا : مانعرف الرحمان إلا ذاك باليمامة . يعنون به مسيلمة الكذاب !

ويرد على تطاولهم هذا بتمجيد الله سبحانه وتكبيره والتحدث ببركته وعظمته ، وعظمة خلقه ، وآياته المذكرة به فى هذا الخلق العظيم .

« تبارك الذى جعل فى السماء بروجا . وجعل فيها سراجا ، وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ، أو أراد شكورا » .

والبروج ـ على الأرجح ـ منازل الكواكب السيارة ومداراتها الفلكية الهائلة. والفخامة هنا تقابل فى الحس ذلك الاستخفاف فى قولة المشركين : « وما الرحمان » ؟ فهذا شىء من خلقه ضخم هائل عظيم فى الحس وفى الحقيقة ؛ وفى هذه البروج تنزل الشمس ويسميها « سراجا » لما تبعث به من ضوء إلى أرضنا وغيرها . وفيها القمر المنير الذى يبعث بنوره الهادىء اللطيف .

ويعرض كذلك مشهد الليل والنهار وتعاقبهما . وهما آيتان مكرورتان ينساهما الناس ، وفيهما الكفاية : « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » . ولولا أن جعلهما كذلك يتعاوران الناس ، ويخلف أحدهما أخاه ، ما أمكنت الحياة على ظهر هذا الكوكب لإنسان ولا لحيوان ولا لنبات . بل لو أن طولهما تغير لتعذرت كذلك الحياة .

جاء فى كتاب : « الإنسان لا يقوم وحده » (العلم يدعو إلى الإيمان) .

« تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة فى كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل فى الساعة . والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط فى الساعة . ولم لا ؟ عندئذ يكون ليلنا ونهارنا أطول مما هما الآن عشر مرات . وفى هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا فى كل نهار . وفى الليل يتجمد كل نبت فى الأرض ! » .

فتبارك الذى خلق السماوات والأرض ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا . وتبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » ..

« وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا: سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا، وَلَمْ يَقْتُرُوا، وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا، فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا.

« قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » .

هذا الشوط الأخير فى السورة يبرز فيه « عباد الرحمان » بصفاتهم المميزة ، ومقوماتهم الخاصة ؛ وكأنما هم خلاصة البشرية فى نهاية المعركة الطويلة بين الهدى والضلال . بين البشرية الجاحدة المشاقة والرسل الذين يحملون الهدى لهذه البشرية . وكأنما هم الثمرة الجنية لذلك الجهاد الشاق الطويل ، والعزاء المريح لحملة الهدى فيما لاقوه من جحود وصلادة وإعراض !

وقد سبق فى الدرس الماضى تجاهل المشركين واستنكارهم لاسم « الرحمان » فهاهم أولاء عباد الرحمان ، الذين يعرفون الرحمان ، ويستحقون أن ينسبوا إليه ، وأن يكونوا عباده . ها هم أولاء بصفاتهم المميزة ومقومات نفوسهم وسلوكهم وحياتهم . ها هم أولاء مثلا حية واقعية

للجماعة التى يريدها الإسلام ، وللنفوس التى ينشئها بمنهجه التربوى القويم . وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يعبأ بهم الله فى الأرض ، ويوجه إليهم عنايته ؛ فالبشر كلهم أهون على الله من أن يعبأ بهم ، لولا أن هؤلاء فيهم ، ولولا أن هؤلاء يتوجهون إليه بالتضرع والدعاء .

* * *

« وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا :سلاما »..

هاهى ذى السمة الأولى من سمات عباد الرحمان : أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة ، ليس فيها تكلف ولا تصنع ، وليس فيها خيلاء ولا تنفج ، ولا تصعير خد ولا تخلع أو ترهل . فالمشية ككل حركة تعبير عن الشخصية ، وعما يستكن فيها من مشاعر . والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة ، تخلع صفاتهـا هذه على مشية صاحبها ، فيمشى مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة . فيها وقار وسكينة ، وفيها جد وقوة . وليس معنى : « يمشون على الأرض هونا » أنهم يمشون متماوتين منكسى الرؤوس ، متداعى الأركان ، متهاوى البنيان ؛ كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوى والصلاح ! وهذا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان إذا مشى تكفأ تكفيا ، وكان أسرع الناس مشية ، وأحسنها وأسكنها ، قال أبو هريرة : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وما رأيت أحدا أسرع فى مشيته من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كأنما الأرض تطوى له ــ وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث . وقال على ابن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا مشى تكفأ تكيفا كأنما ينحط من صبب . وقال مرة إذا تقلع ــ قلت والتقلع الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب ، وهى مشية أولى العزم والهمة والشجاعة [1] .

وهم فى جدهم ووقارهم وقصدهم إلى ما يشغل نفوسهم من اهتمامات كبيرة ، لايتلفتون إلى حماقة الحمقى وسفه السفهاء ، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السفهاء والحمقى فى جدل أو عراك،ويترفعون عن المهاترة مع المهاترين الطائشين : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما » لا عن ضعف ولكن عن ترفع ؛ ولا عن عجز إنما عن استعلاء ، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع .

* * *

(١) عن زاد المعاد فى هدى خير العباد لشمس الدين أبى عبدالله محمد ابن قيم الجوزية .

هـذا نهارهم مع الناس فأما ليلهم فهو التقوى ومراقبة الله ، والشعور بجلاله ، والخوف من عذابه .

« والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم . إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما » ..

والتعبير يبرز من الصلاة السجود والقيام لتصوير حركة عباد الرحمان ، فى جنح الليل والناس نيام . فهؤلاء قوم يبيتون لربهم سجداً وقياما ، يتوجهون لربهم وحده ، ويقومون له وحده ، ويسجدون له وحده . هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ ، بمـا هو أروح منه وأمتع ، مشغولون بالتوجه إلى ربهم ، وتعليق أرواحهم وجوارحهم به ، ينام النـاس وهم قائمون ساجدون ؛ ويخلد الناس إلى الأرض وهم يتطلعون إلى عرش الرحمان ، ذى الجلال والإكرام .

وهم فى قيامهم وسجودهم وتطلعهم وتعلقهم تمتلىء قلوبهم بالتقوى ، والخوف من عذاب جهنم . يقولون : « ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما » .. وما رأوا جهنم ، ولـكنهم آمنوا بوجودها ، وتمثلوا صورتها مما جاءهم فى القرآن الـكريم وعلى لسان رسول الله الـكريم . فهذا الخوف النبيل إنما هو ثمرة الإيمان العميق ، وثمرة التصديق .

وهم يتوجهون إلى ربهم فى ضراعة وخشوع ليصرف عنهم عذاب جهنم . لا يطمئنهم أنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما ؛ فهم لما يخالج قلوبهم من التقوى يستقلون عملهم وعبادتهم ، ولا يرون فيها ضمانا ولا أمانا من النار ، إن لم يتداركهم فضـل الله وسماحته وعفوه ورحمته ، فيصرف عنهم عذاب جهنم .

والتعبير يوحى كأنمـا جهنم متعرضة لـكل أحد ، متصدية لـكل بشر ، فاتحة فاها ، تهم أن تلتهم ، باسطة أيديها تهم أن تقبض على القريب والبعيد ! وعباد الرحمان الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، يخافونها ويخشونها ، ويتضرعون إلى ربهم أن يصرف عنهم عذابها ، وأن ينجيهم من تعرضها وتصديها !

ويرتعش تعبيرهم وهم يتضرعون إلى ربهم خوفا وفزعا : « إن عذابها كان غراما » : أى ملازما لا يتحول عن صاحبه ولا يفارقه ولا يقيله ؛ فهذا ما يجعله مروعا مخيفا شنيعاً . .

« إنها ساءت مستقرا ومقاما » وهل أسوأ من جهنم مكانا يستقر فيه الإنسان ويقيم . وأين الاستقرار وهى النار ؟ وأين المقام وهو التقلب على اللظى ليل نهار !

* * *

وهم فى حياتهم نموذج القصد والاعتدال والتوازن :

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .

وهـذه سمة الإسلام التى يحققها فى حياة الأفراد والجماعات ؛ ويتجه إليها فى التربية والتشريع ، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال .

والمسلم ـ مع اعتراف الإسـلام بالملـكية الفردية المقيدة ـ ليس حرا فى إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء ـ كما هو الحال فى النظام الرأسمالى ، وعند الأمم التى لا يحكم التشريع الإلهى حياتها فى كل ميدان . إنما هو مقيد بالتوسط فى الأمرين الإسراف والتقتير . فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ؛ والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله . فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية . والإسراف والتقتير يحدثان اختلالا فى المحيط الاجتماعى والمجال الاقتصادى، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب . ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق .

والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد ، فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان :

« وكان بين ذلك قواما » ..

* * *

وسمة عباد الرحمان بعد ذلك أنهم لا يشركون بالله ، ويتحرجون من قتل النفس ، ومن الزنا . تلك الـكبائر المنكرات التى تستحق أليم العذاب :

« والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » .

وتوحيد الله أساس هـذه العقيدة ، ومفرق الطريق بين الوضوح والاستقامة والبساطة فى الاعتقاد ؛ والغموض والالتواء والتعقيد ، الذى لا يقوم على أساسه نظام صالح للحياة .

والتحرج من قتل النفس ـ إلا بالحق ـ مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة التى تحترم فيها الحياة الإنسانية ويقام لها وزن ؛ وحياة الغابات والـكهوف التى لا يأمن فيها على نفسه أحد ولا يطمئن إلى عمل أو بناء .

والتحرج من الزنا هو مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التى يشعر فيها الإنسان بارتفاعه عن الحس الحيوانى الغليظ ، ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفا أسمى من إرواء سعار اللحم والدم ، والحياة الهابطة الغليظة التى لا هم للذكران والإناث فيها إلا إرضاء ذلك السعار .

ومن أجل أن هذه الصفات الثلاثة مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الـكريم على الله ؛ والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان . . من أجل ذلك ذكرها الله فى سمات عباد الرحمان . أرفع الخلق عند الله وأكرمهم على الله . وعقب عليها بالتهديد الشديد : «ومن يفعل ذلك يلق أثاما » أى عذابا . وفسر هذا العذاب بما بعـده « يضاعف له العذاب يوم القيامة . ويخلد فيه مهانا » . . فليس هو العذاب المضاعف وحده ، وإنما هى المهانة كذلك ، وهى أشد وأنـكى .

ثم يفتح باب التوبة لمن أراد أن ينجو من هذا المصير المسىء بالتوبة والإيمـان الصحيح والعمل الصالح : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا » ويعد التائبين المؤمنين العاملين أن يبدل ما عملوه من سيئات قبل التوبة حسنات بعدها تضاف إلى حسناتهم الجديدة : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » . وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبـد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال ، وثاب إلى حمى الله ، ولاذ به بعد الشرود والمتاهة . « وكان الله غفورا رحيما » . .

وباب التوبة دائما مفتوح ، يدخل منه كل من استيقظ ضميره ، وأراد العودة والمآب . لا يصد عنه قاصد ، ولا يغلق فى وجه لاجىء ، أيا كان ، وأيا ما ارتـكب من الآثام .

روى الطبرانى من حديث أبى المغيرة عن صفوان ابن عمر عن عبد الرحمان ابن جبير عن أبى فروة ، أنه أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمت ؟ » فقال : نعم . قال : « فافعل الخيرات

واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها » قال : وغدراتى وفجراتى ؟ قال : « نعم » . فما زال يكبر حتى توارى .

ويضع قاعدة التوبة وشرطها : «ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا» ..فالتوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية ، وتنتهى بالعمل الصالح الذى يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية . وهو فى الوقت ذاته ينشىء التعويض الإيجابى فى النفس للإقلاع عن المعصية . فالمعصية عمل وحركة ، يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة ، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذى تحسه بعد الإقلاع . وهذه لمحة فى منهج التربية القرآنى عجيبة ، تقوم على خبرة بالنفس الإنسانية عميقة . ومن أخبر من الخالق بما خلق ؟ سبحانه وتعالى !

* * *

وبعد هذا البيان المعترض يعود إلى سمات « عباد الرحمان » :

« والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما » . .

وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللفظ ومعناه القريب ، أنهم لا يؤدون شهادة زور ، لما فى ذلك من تضييع الحقوق ، والإعانة على الظلم . وقد يكون معناها الفرار من مجرد الوجود فى مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، ترفعا منهم عن شهود مثل هذه المجالس والمجالات. وهو أبلغ وأوقع . وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر: « وإذا مروا باللغو مروا كراما » لا يشغلون أنفسهم به ، ولا يلوثونها بسماعه ؛ إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤيته بله المشاركة فيه ! فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر ، وليس لديه من الفراغ والبطالة مايدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها فى نفسه وفى الحياة كلها فى شغل شاغل .

* * *

ومن سماتهم أنهم سريعو التذكر إذا ذكروا ، قريبو الاعتبار إذا وعظوا ، مفتوحو القلوب لآيات الله ، يتلقونها بالفهم والاعتبار :

« والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » .

وفى التعبير تعريض بالمشركين الذين ينكبون على آلهتهم وعقائدهم وأباطيلهم كالصم والعميان؛

لا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يتطلعون إلى هدى أو نور . وحركة الانكباب على الوجوه بلا سمع ولا بصر ولا تدبر حركة تصور الغفلة والانطماس والتعصب الأعمى . فأما عباد الرحمن ، فهم يدركون إدراكا واعيا بصيرا مافى عقيدتهم من حق ، وما فى آيات الله من صدق ، فيؤمن إيمانا واعيا بصيرا ، لا تعصبا أعمى ولا انكبابا على الوجوه ! فإذا تحمسوا لعقيدتهم فإنما هى حماسة العارف المدرك البصير .

* * *

وأخيرا فإن عباد الرحمان لا يكفيهم أنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما ؛ وأنهم يتسمون بتلك السمات العظيمة كلها ، بل يرجون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم ، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم ؛ فتقر بهم عيونهم ، وتطمئن بهم قلوبهم ، ويتضاعف بهم عدد « عباد الرحمن » ويرجون أن يجعل الله منهم قدوة طيبة للذين يتقون الله ويخافونه :

« والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » . .

وهذا هو الشعور الفطرى الإيمانى العميق : شعور الرغبة فى مضاعفة السالكين فى الدرب إلى الله . وفى أولهم الذرية والأزواج ، فهم أقرب الناس تبعة وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال . والرغبة كذلك فى أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير ، يأتم به الراغبون فى الله . وليس فى هذا من أثرة ولا استعلاء فالركب كله فى الطريق إلى الله .

* * *

فأما جزاء عباد الرحمان فيختم به هذا البيان :

« أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » . .

والغرفة ربما كان المقصود بها الجنة ، أو المكان الخاص فى الجنة ، كما أن الغرفة أكرم من البهو فيما اعتاد الناس فى البيوت فى هذه الأرض ، عندما يستقبلون الأضياف . وأولئك الكرام الذين سبقت صفاتهم وسماتهم ، يستقبلون فى الغرفة بالتحية والسلام ، جزاء ما صبروا على تلك الصفات والسمات . وهو تعبير ذو دلالة . فهذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس ، ومغريات الحياة ، ودوافع السقوط . والاستقامة جهد لا يقدر عليه إلا بالصبر . الصبر الذى يستحق أن يذكره الله فى هذا الفرقان .

وفى مقابل جهنم التى يتضرعون إلى ربهم أن يصرفها عنهم لأنها ساءت مستقرا ومقاما ، يجزيهم الله الجنة « خالدين فيها . حسنت مستقرا ومقاما » فلا مخرج لهم إلا أن يشاء الله . وهم فيها على خير حال من الاستقرار والمقام .

* * *

والآن وقد صور عباد الرحمان . تلك الخلاصة الصافية للبشرية . يختم السورة بهوان البشرية على الله لولا هؤلاء الذين يتطلعون إلى السماء . فأما المكذبون فالعذاب حتم عليهم لزام .

« قل : ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » . .

وهو ختام يناسب موضوع السورة كلها ؛ ومساقها للتسرية عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتعزيته عما يلاقى من عناد قومه وجحودهم ، وتطاولهم عليه ، وهم يعرفون مقامه ؛ ولكنهم فى سبيل الإبقاء على باطلهم يعاندون ويصرون . . فما قومه ؟ وما هذه البشرية كلها ، لولا القلة المؤمنة التى تدعو الله ، وتتضرع إليه . كما يدعو عباد الرحمن ويتضرعون ؟

من هم والأرض التى تضم البشر جميعا إن هى إلا ذرة صغيرة فى فضاء الكون الهائل . والبشرية كلها إن هى إلا نوع من أنواع الأحياء الكثيرة على وجه هذه الأرض . والأمة واحدة من أمم هذه الأرض . والجيل الواحد من أمة إن هو إلا صفحة من كتاب ضخم لا يعلم عدد صفحاته إلا الله ؟

وإن الإنسان مع ذلك لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئا ؛ ويتطاول ويتطاول حتى ليتطاول على خالقه سبحانه ! وهو هين هين ، ضعيف ضعيف ، قاصر قاصر . إلا أن يتصل بالله فيستمد منه القوة والرشاد ، وعندئذ فقط يكون شيئا فى ميزان الله ؛ وقد يرجح ملائكة الرحمن فى هذا الميزان . فضلا من الله الذى كرم هذا الإنسان وأسجد له الملائكة ، ليعرفه ويتصل به ويتعبد له ، فيحفظ بذلك خصائصه التى سجدت له معها الملائكة ؛ وإلا فهو لقى ضائع ، لو وضع نوعه كله فى الميزان ما رجحت به كفة الميزان !

« قل : مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » . . وفى التعبير سند للرسول — صلى الله عليه وسلم — وإعزاز : « قل : مايعبأ بكم ربى » . فأنا فى جواره وحماه . هو ربى وأنا عبده . فما أنتم بغير الإيمان به ، والانضمام إلى عباده ؟ إنكم حصب جهنم « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » . .

سورة الشعراء مكية
وآياتها ٢٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَالِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

موضوع هذه السورة الرئيسى هو موضوع السور المكية جميعاً .. العقيدة .. ملخصة فى عناصرها الأساسية : توحيد الله : « فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين » .. والخوف من الآخرة : « ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .. والتصديق بالوحى المنزل على محمد رسول الله ـ صلى الله عليه سلم ـ : « وإنه لتنزيل رب العالمين ؛ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .. ثم التخويف من عاقبة التكذيب ، إما بعذاب الدنيا الذى يدمر المكذبين ؛ وإما بعذاب الآخرة الذى ينتظر الكافرين: « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ! » .. « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ذلك إلى تسلية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن: « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين ؛ وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا فى سبيلها من الظالمين ؛ كما ثبت من قبلهم من المؤمنين .

وجسم السورة هو القصص الذى يشغل ثمانين ومئة آية من مجموع آيات السورة كلها . والسورة هى هــذا القصص مع مقدمة وتعقيب . والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحــدة متكاملة متجانسة ، تعبر عن موضوع السورة وتبرزه فى أساليب متنوعة ، تلتقى عند هدف واحــد . . ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقــة أو الحلقات التى تؤدى هــذه الأغراض .

ويغلب على القصص كما يغلب على السورة كلهــا جو الإنذار والتكذيب ، والعذاب الذى يتبع التكذيب . ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركى قريش لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واستهزاءهم بالنذر ، وإعراضهم عن آيات الله ، واستعجالهم بالعذاب الذى يوعدهم به ؛ مع التقول على الوحى والقرآن ؛ والادعاء بأنه سحر أو شعر تتنزل به الشياطين !

والسورة كلها شوط واحد ــ مقدمتها وقصصها وتعقيبها ــ فى هذا المضمار . لذلك نقسمها إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها . ونبدأ بالمقدمة قبل القصص المختار :

* * *

« طسم . تلك آيات الكتاب المبين » . .

طا . سين . ميم . . الأحرف المقطعة للتنبيه إلى أن آيات الكتاب المبين ــ ومنها هــذه السورة ــ مؤلفة من مثل هذه الأحرف ؛ وهى فى متناول المكذبين بالوحى ؛ وهم لا يستطيعون أن يصوغوا منها مثل هذا الكتاب المبين . والحديث عن هذا الكتاب متداول فى السورة . فى مقدمتها ونهايتها . كما هو الشأن فى السور المبدوءة بالأحرف المقطعة فى القرآن .

وبعد هــذا التنبيه يبدأ فى مخاطبة رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ الذى يهمه أمر المشركين ويؤذيه تكذيبهم له وللقرآن الكريم ؛ فيسليه ويهون عليه الأمر ؛ ويستكثر ما يعانيه من أجلهم ؛ وقد كان الله قادرا على أن يلوى أعناقهم كرها إلى الإيمان ، بآية قاهرة تقسرهم عليه قسرا :

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ! إن نشأ ننزل عليهم من السماء آيـة فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

وفى التعبير مايشبه العتب على شدة ضيقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهمه بعدم إيمانهم : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » .. وبخع النفس قتلها . وهذا يصور مدى ما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعانى من تـكذيبهم ، وهو يوقن بما ينتظرهم بعد التـكذيب ، فتذوب نفسه عليهم ـ وهم أهله وعشيرته وقومه ـ ويضيق صدره . فربه يرأف به ، وينهنه عن هذا الهم القاتل ، ويهون عليه الأمر ، ويقول له : إن إيمانهم ليس مما كلفت ؛ ولو شئنا أن نـكرههم عليه لأكرهناهم ، ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملـكون معها جدالا ، ولا انصرافاً عن الإيمان . ويصور خضوعهم لهذه الآية صورة حسية : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » ملوية محنية حتى لـكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم ، فهم عليها مقيمون !

ولـكنه ـ سبحانه ـ لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة . لقد جعل آيتها القرآن . منهاج حياة كاملة . معجزا فى كل ناحية :

معجزا فى بنائه التعبيرى وتنسيقه الفنى ، باستقامته على خصائص واحدة ، فى مستوى واحد ، لا يختلف ولا يتفاوت ، ولا تتخلف خصائصه ؛ كما هى الحال فى أعمال البشر . إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف فى عمل الفرد الواحد ، المتغير الحالات . بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ، ومستوى واحد ، ثابت لا يتخلف ، يدل على مصدره الذى لا تختلف عليه الأحوال .

معجزاً فى بنائه الفـكرى ، وتناسق أجزائه وتـكاملها ، فلا فلتة فيه ولا مصادفة . كل توجيهاته وتشريعاته تلتقى وتتناسق وتتـكامل ؛ وتحيط بالحياة البشرية ، وتستوعبها ، وتلبيها وتدفعها ، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ؛ ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تلبيتها .. وكلها مشدودة إلى محور واحد ، وإلى عروة واحدة ، فى اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة . ولابد أن تـكون هناك خبرة مطلقة ، غير مقيدة بقيود الزمان والمـكان . هى التى أحاطت به هذه الإحاطة ، ونظمته هذا التنظيم .

معجزا فى يسر مداخله إلى القلوب والنفوس ، ولمس مفاتيحها ، وفتح مغاليقها ، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها ؛ وعلاجها لعقدها ومشكلاتها فى بساطة ويسر عجيبين ؛ وفى تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات ، دون تعقيد ولا التواء ولا معاظلة .

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ـ ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوى الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم ـ ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها ، وللأجيال كلها . وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان . فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب . لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوى إلا أعناق من يشاهدونها ؛ ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى ، لا واقعا يشهد .. فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم ، يستمد منه أهل هذا الزمان مايقوم حياتهم ـ لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم ـ ويلبى حاجاتهم كاملة؛ ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل . وسيجد فيه من بعدنا كثيرا مما لم نجده نحن ؛ ذلك أنه يعطى كل طالب بقدر حاجته ؛ ويبقى رصيده لاينفد ، بل يتجدد . ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى . فكانوا يعرضون عما يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حينا بعد حين :

« وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين » . .

ويذكر اسم الرحمان هنا للإشارة إلى عظيم رحمته بتنزيل هذا الذكر ، فيبدو إعراضهم عنه مستقبحا كريها ؛ وهم يعرضون عن الرحمة التى تتنزل عليهم ، ويرفضونها ، ويحرمون أنفسهم منها ، وهم أحوج ما يكونون إليها !

ويعقب على هذا الإعراض عن ذكر الله ورحمته بالتهديد بعقابه وعذابه :

« فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » . .

وهو تهديد مضمر مجمل مهول . وفى التعبير سخرية تناسب استهزاءهم بالوعيد . « فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » . . ستأتيهم أخبار العذاب الذى يستهزئون به ! وهم لن يتلقوا أخبارا . إنما سيذوقون العذاب ذاته ، ويصبحون هم أخبارا فيه ، يتناقل الناس ماحل بهم منه . ولكنهم يستهزئون فيستهزأ بهم مع التهديد المرهوب !

وإنهم يطلبون آية خارقة ؛ ويغفلون عن آيات الله الباهرة فيما حولهم ؛ وفيها الكفاية

للقلب المفتوح والحس البصير ؛ وكل صفحة من صفحات هذا الكون العجيب آية تطمئن بها القلوب .

« أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟ إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين » . .

ومعجزة إخراج النبات الحى من الأرض ، وجعله زوجا ذكرا وأنثى ، إما منفصلين كما فى بعض فصائل النبات ، وإما مجتمعين كما هو الغالب فى عالم النبات ، حيث تجتمع أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث فى عود واحد .. هذه المعجزة تتكرر فى الأرض حولهم فى كل لحظة : « أو لم يروا ! » والأمر لا يحتاج إلى أكثر من الرؤية ؟

والمنهج القرآنى فى التربية يربط بين القلب ومشاهد هذا الكون ؛ وينبه الحس الخامد ، والذهن البليد ، والقلب المغلق ، إلى بدائع صنع الله المبثوثة حول الإنسان فى كل مكان ؛ كى يرتاد هذا الكون الحى بقلب حى ؛ يشاهد الله فى بدائع صنعه ، ويشعر به كلما وقعت عينه على بدائعه ؛ ويتصل به فى كل مخلوقاته ؛ ويراقبه وهو شاعر بوجوده فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار . ويشعر أنه هو واحد من عباده ، متصل بمخلوقاته ، مرتبط بالنواميس التى تحكمهم جميعا . وله دوره الخاص فى هذا الكون ، وبخاصة هذه الأرض التى استخلف فيها :

« أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » . .

كريم بما فيه من حياة ، صادرة من الله الكريم . . واللفظ يوحى إلى النفس باستقبال صنع الله بما يليق من التكريم والحفاوة والاحتفال ؛ لا بالاستهانة والغفلة والإغفال .. « إن فى ذلك لآية » . وهم يطلبون الآيات . ولكن أكثرهم لا يؤمن بهذه الآية : « وما كان أكثرهم مؤمنين » !

وتنتهى مقدمة السورة بالتعقيب الذى يتكرر فى السورة بعد استعراض كل آية :

« وإن ربك لهو العزيز الرحيم » . .

« العزيز » القوى القادر على إبداع الآيات ، وأخذ المكذبين بالعذاب « الرحيم » الذى يكشف عن آياته ، فيؤمن بها من يهتدى قلبه ؛ ويمهل المكذبين ؛ فلا يعذبهم حتى يأتيهم نذير . وفى آيات الكون غنى ووفرة ، ولكن رحمته تقتضى أن يبعث بالرسل للتبصير والتنوير . والتبشير والتحذير .

« وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى : أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ. أَلَا يَتَّقُونَ؟ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ، فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ : كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ .

« قَالَ : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ؟ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ؟ * قَالَ: فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * : وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ * قَالَ : رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : أَلَا تَسْتَمِعُونَ ؟ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ : أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ: فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ : إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟ * قَالُوا : أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ .

« فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ : هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ؟ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ .

« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ : أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ؟ * قَالَ : نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى: أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا

حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ! إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا : لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ .

« فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ : كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » . .

هذه الحلقة من قصة موسى — عليه السلام — تجيء فى هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة ، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة ؛ وإلى طمأنة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتعزيته عما يلقاه من إعراض المشركين وتكذيبهم ؛ وإلى رعاية الله لدعوته

والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون فى الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل ـ وهو الموقف الذى كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة ـ وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية فى القرآن الكريم .

وقد وردت حلقات من قصة موسى ـ عليه السلام ـ حتى الآن فى سورة البقرة ، وسورة المائدة ، وسورة الأعراف ، وسورة يونس ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة طـه . عدا إشارات إليها فى سور أخرى .

وفى كل مرة كانت الحلقات التى تعرض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة ، أو السياق الذى تعرض فيه ، على نحو ماهى فى هذه السورة ؛ وكانت تشارك فى تصوير الموضوع الذى يهدف إليه السياق[1] .

والحلقة المعروضة هنا هى حلقة الرسالة والتكذيب وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء على هذا التكذيب ، وعقاباً على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين . ونجاة موسى وبنى إسرائيل من كيد الظالمين . وفى هذا تصديق قول الله سبحانه فى هذه السورة عن المشركين : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . . وقوله : « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » . .

وهذه الحلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية ، بينها فجوات بمقدار ما يسدل الستار على المشهد ، ثم يرفع عن المشهد الذى يليه . وهى ظاهرة فنية ملحوظة فى طريقة العرض القرآنية للقصة[2] .

وهنا سبعة مشاهد : أولها مشهد النداء والبعثة والوحى والمناجاة بين موسى ـ عليه السلام ـ وربه . وثانيها مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه برسالته وآيتى العصا واليد البيضاء . وثالثها مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى . ورابعها مشهد السحرة بحضرة فرعون يطمئنون على الأجر والجزاء ! وخامسها مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده . وسادسها مشهد ذو شقين : الشق الأول مشهد إيحاء الله لموسى أن يسرى

---

(١) تراجع ص ٦٣ ـ ٦٤ من الجزء السادس عشر من الظلال . وفصل : القصة فى القرآن فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن .

(٢) فصل :القصة فى القرآن .

بعباده ليلا ، والثانى مشهد إرسال فرعون فى المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بنى إسرائيل . وسابعها مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انفلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين .

وقد عرضت هذه المشاهد فى سورة الأعراف ، وفى سورة يونس ، وفى سورة طه . ولكنها عرضت فى كل موضع من الجانب الذى يناسب ذلك الموضع ، وبالطريقة التى تتفق مع اتجاهه ، وكان التركيز فيها على نقط معينة هنا وهناك .

ففى الأعراف مثلا بدأ بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصرا ، ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعا ، بينما وسع فى عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك ، وعرض آيات موسى مدة إقامته فى مصر بعد المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة . واستطرد بعد ذلك مع بنى إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر فى حلقات كثيرة . . واختصر هذا هنا فلم يشر إليه . بينما وسع فى مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله ؛ وهو موضوع الجدل فى هذه السورة بين المشركين والنبى صلى الله عليه وسلم .

وفى يونس بدأ بمشهد المواجهة مختصراً لم يعرض فيه آيتى العصا واليد ، واختصر كذلك فى مشهد المباراة . بينما توسع هنا فى كليهما .

وفى سورة طـــه توسع فى مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه . واستطرد بعد مشهدى المواجهة والمباراة فصاحب بنى إسرائيل فى رحلتهم طويلا . ولم يجاوز هنا مشهد الغرق والنجاة .

وكذلك لا نجد تكراراً فى عرض القصة أبداً على كثرة ما عرضت فى سور القرآن . لأن هذا التنويع فى اختيار الحلقات التى تعرض ، ومشاهد كل حلقة ، والجانب الذى يختار من كل مشهد ، وطريقة عرضه . . . كل أولئك يجعلها جديدة فى كل موضع . متناسقة مع هذا الموضع .

* * *

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟ قال : رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ، فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال : كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » . .

الخطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا القصص ، بعد ماقال له فى مطلع السورة : « فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ».. ثم أخذ يقص عليه أنباء المكذبين المعرضين المستهزئين ، وما حاق بهم من العذاب الأليم .

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟ » ..

وهذا هو المشهد الأول : مشهد التكليف بالرسالة لموسى ـ عليه السلام ـ وهو يبدأ بإعلان صفة القوم : « القوم الظالمين » فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال ، وظلموا بنى إسرائيل بما كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويعذبونهم بالسخرة والنكال . لذلك يقدم صفتهم ثم يعينهم « قوم فرعون » ثم يعجب موسى من أمرهم ويعجب كل إنسان : « ألا يتقون ؟ » ألا يخشون ربهم ؟ ألا يخافون مغبة ظلمهم ؟ ألا يرجعون عن غيهم ؟ ألا إن أمرهم لعجيب يستحق التعجيب ! وكذلك كل من كان على شاكلتهم من الظالمين !

ولم يكن أمر فرعون وملئه جديدا على موسى ـ عليه السلام ـ فهو يعرفه ، ويعرف ظلم فرعون وعتوه وجبروته ، ويدرك أنها مهمة ضخمة وتكليف عظيم . ومن ثم يشكو إلى ربه ما به من ضعف وقصور لا ليتنصل أو يعتذر عن التكليف ، ولكن ليطلب العون والمساعدة فى هذا التكليف العسير .

« قال : رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون » .

والظاهر من حكاية قوله ـ عليه السلام ـ أن خوفه ليس من مجرد التكذيب ، ولكن من حصوله فى وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين ، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده . إذ كانت بلسانه حبسة هى التى قال عنها فى سورة طه : « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » ومن شأن هذه الحبسة أن تنشىء حالة من ضيق الصدر ، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام . وتزداد كلما زاد الانفعال ، فيزداد الصدر ضيقا ... وهكذا ... وهى حالة معروفة . فمن هنا خشى موسى أن تقع له هذه الحالة وهو فى موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون . فشكا إلى ربه ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته ،

وطلب إليه أن يوحى إلى هارون أخيه ، ويشركه معه فى الرسالة اتقاء للتقصير فى أداء التكليف، لا نكوصا ولا اعتذارا عن التكليف . فهارون أفصح لسانا ومن ثم هو أهدأ انفعالا ؛ فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان . ولقد دعا موسى ربه ـ كما ورد فى سورة طه ـ ليحل هذه العقدة من لسانه ، ولكنه زيادة فى الاحتياط للنهوض بالتكليف طلب معه أخاه هارون وزيرا ومعينا . .

وكذلك الشأن فى قوله : « ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون » . . فإن ذكره هنا ليس للخوف من المواجهة ، والتخلى عن التكليف . ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون . حتى إذا قتلوه قام هارون من بعده بالرسالة ، وأتم الواجب كما أمره ربه دون تعويق .

فهو الاحتياط للدعوة لا للداعية . الاحتياط من أن يحتبس لسانه فى الأولى وهو فى موقف المنافحة عن رسالة ربه وبيانها ، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة . والاحتياط من أن يقتلوه فى الثانية فتتوقف دعوة ربه التى كلف أداءها وهو على إبلاغها واطرادها حريص . وهذا هو الذى يليق بموسى ـ عليه السلام ـ الذى صنعه الله على عينه ، واصطنعه لنفسه .

ولما علمه ربه من حرصه هذا وإشفاقه واحتياطه أجابه إلى ما سأل ، وطمأنه مما يخاف . والتعبير هنا يختصر مرحلة الاستجابة ، ومرحلة الإرسال إلى هارون ، ومرحلة وصول موسى إلى مصر ولقائه لهارون ؛ ويبرز مشهد موسى وهارون مجتمعين يتلقيان أمر ربهما الكريم ، فى نفس اللحظة التى يطمئن الله فيها موسى ، وينفى مخاوفه نفيا شديدا ، فى لفظة تستخدم أصلا للردع وهى كلمة « كلا » !

« قال : كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » .

كلا . لن يضيق صدرك ويحتبس لسانك . وكلا لن يقتلوك . فأبعد هذا كله عن بالك بشدة . واذهب أنت وأخوك . « اذهبا بآياتنا » وقد شهد موسى منها العصا واليد البيضاء ـ والسياق يختصرهما هنا لأن التركيز فى هذه السورة موجه إلى موقف المواجهة وموقف السحرة وموقف الغرق والنجاة . اذهبا « إنا معكم مستمعون » فأية قوة ؟ وأى سلطان ؟ وأى حماية ورعاية وأمان؟ والله معهما ومع كل إنسان فى كل لحظة وفى كل مكان. ولكن الصحبة المقصودة هنا هى صحبة النصر والتأييد . فهو يرسمها فى صورة الاستماع ، الذى هو أشد درجات الحضور والانتباه. وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة . وذلك على طريقة القرآن فى التعبير بالتصوير . .

اذهبا « فأتيا فرعون » فأخبراه بمهمتكما فى غير حذر ولا تلجلج : « فقولا : إنا رسول رب العالمين » وهما اثنان ولكنهما يذهبان فى مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول . رسول رب العالمين . فى وجه فرعون الذى يدعى الألوهية ، ويقول لقومه : « ما علمت لكم من إله غيرى » فهى المواجهة القوية الصريحة بحقيقة التوحيد منذ اللحظة الأولى ، بلا تدرج فيها ولا حذر . فهى حقيقة واحدة لا تحتمل التدرج والمداراة .

« إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » . . وواضح من هذا ومن أمثاله فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ فى القرآن ، أنه لم يكن رسولا إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته . إنما كان رسولا إليهم ليطلب إطلاق بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون . وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل ـ وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام ـ فبهت هذا الدين فى نفوسهم ، وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد .

* * *

وإلى هنا نحن أمام مشهد البعثة والوحى والتكليف . ولكن الستار يسدل . لنجدنا أمام مشهد المواجهة . وقد اختصر ماهو مفهوم بين المشهدين على طريقة العرض القرآنية الفنية :

« قال ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ؟ قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » .

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى الضخمة : « إنا رسول رب العالمين » . ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم ! « أن أرسل معنا بنى إسرائيل » . فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيبا فى قصره منذ أن التقطوا تابوته[1] . وأنه هرب بعد قتله للقبطى الذى وجده يتعارك مع الإسرائيلى[2] . وقيل : إن هذا القبطى كان من حاشية فرعون . فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التى يواجهه بها بعد عشر سنين ! ومن ثم بدأ فرعون متهكما مستهزئا مستعجبا :

---

(١) سورة طه . الجزء السادس عشر من الظلال . (٢) سورة القصص .

« قال : ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التى فعلت ، وأنت من الكافرين ؟ » . .

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التى لقيتها عندنا وأنت وليد ؟ أن تأتى اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ؟ ولتخرج على الملك الذى نشأت فى بيته ، وتدعو إلى إله غيره ؟ !

وما بالك ــ وقد لبثت فينا من عمرك سنين ــ لم تتحدث بشىء عن هذه الدعوى التى تدعيها اليوم ؟ ولم تخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم ؟ !

ويذكره بحادث مقتل القبطى فى تهويل وتجسيم : « وفعلت فعلتك التى فعلت » . . فعلتك البشعة الشنيعة التى لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة ! فعلتها « وأنت من الكافرين » برب العالمين الذى تقول به اليوم ، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين !

وهكذا جمع فرعون كل ماحسبه ردا قاتلا لا يملك موسى ــ عليه السلام ــ معه جوابا ، ولا يستطيع مقاومة . وبخاصة حكاية القتل ، وما يمكن أن يعقبها من قصاص ، يتهدده به من وراء الكلمات !

ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه فأزال حبسة لسانه ــ انطلق ــ يجيب :

« قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل ! » ..

فعلت تلك الفعلة وأنا بعد جاهل ، أندفع اندفاع العصبية لقومى ، لا اندفاع العقيدة التى عرفتها اليوم بما أعطانى ربى من الحكمة . « ففررت منكم لما خفتكم » على نفسى . فقسم الله لى الخير : ووهب لى الحكمة « وجعلنى من المرسلين » فلست بدعا من الأمر ، إنما أنا واحد من الرعيل « من المرسلين »[1] .

ثم يجبيه تهكما بتهكم . ولكن بالحق . « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » ..

(١) يلاحظ من ناحية التنسيق الفنى فى التعبير أن حرف الفاصلة فى السورة هو الميم أو النون وقبلها مد . فقوله : من المرسلين . يتمشى موسيقياً مع الإيقاع السائد فى السورة . بعكس ما لو قيل : وجعلنى رسولا . ولكنه مع هذا يؤدى معنى مقصودا . وهو أنه واحد من كثيرين وأن الأمر ليس بفذ ولا عجيب . وهكذا يجتمع التناسق الفنى والدينى فى التعبير .

فما كانت تربيتى فى بيتك وليدا إلا من جراء استعبادك لبنى إسرائيل ، وقتلك أبناءهم ، مما اضطر أمى أن تلقينى فى التابوت ، فتقذف بالتابوت فى الماء ، فتلتقطوننى ، فأربى فى بيتك ، لا فى بيت أبوىّ . فهل هذا هو ماتمنه على ، وهل هذا هو فضلك العظيم ؟ !

عندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة ، وراح يسأله عن صميم دعواه . ولكن فى تجاهل وهزء وسوء أدب فى حق الله الكريم :

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ » ..

إنه ـ قبحه الله ـ يسأل : أى شىء يكون رب العالمين الذى تقول : إنك من عنده رسول ؟ وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه ، المتهكم على القول والقائل ، المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور ، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث !

فيجيبه موسى ـ عليه السلام ـ بالصفة المشتملة على ربوبيته ـ تعالى ـ للكون المنظور كله وما فيه :

« قال : رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين » ..

وهو جواب يكافىء ذلك التجاهل ويغطيه . . إنه رب هذا الكون الهائل الذى لا يبلغ إليه سلطانك ـ يافرعون ـ ولا علمك . وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب وهذا الجزء من وادى النيل . وهو ملك صغير ضئيل ، كالذرة أو الهباءة فى ملكوت السماوات والأرض وما بينهما . وكذلك كان جواب موسى ـ عليه السلام ـ يحمل استصغار مايدعيه فرعون مع بطلانه ، وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل ، والتفكير فيمن يكون ربه . . فهو رب العالمين ! .. ثم عقب على هذا التوجيه بما حكايته[1] : « إن كنتم موقنين » فهذا وحده هو الذى يحسن اليقين به والتصديق .

والتفت فرعون إلى من حوله ، يعجبهم من هذا القول ، أو لعله يصرفهم عن التأثر به ، على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب :

« قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ » ..

ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب ، الذى لا عهد لنا به ، ولا قاله أحد نعرفه !

---

(١) لم يكن موسى يتكلم العربية . فقد كان يخاطب فرعون باللغة المصرية طبعا . ولكن القرآن يحكى قوله.

ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين .

« قال : ربكم ورب آبائكم الأولين » ..

وهذه أشد مساسا بفرعون ودعواه وأوضاعه ،فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه ، فما هو إلا واحد من عبيده . لا إله كما يدعى بين قومه ! وهو رب قومه ، فليس فرعون ربهم كما يزعم عليهم ! وهو رب آبائهم الأولين . فالوراثة التى تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة . فما كان من قبل إلا الله ربا للعالمين !

وإنها للقاصمة لفرعون . فما يطيق عليها سكوتا والملأ حوله يستمعون . ومن ثم يرمى قائلها فى تهكم بالجنون :

« قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » . .

إن رسولكم الذى أرسل إليكم .. يريد أن يتهكم على مسألة الرسالة فى ذاتها ، فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم ، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها . ويتهم موسى — عليه السلام — بالجنون ، ليذهب أثر مقالته التى تطعن وضع فرعون السياسى والدينى فى الصميم . وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين .

ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت فى عضد موسى ؛ فيمضى فى طريقه يصدع بكلمة الحق التى تزلزل الطغاة والمتجبرين :

« قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما . إن كنتم تعقلون » ..

والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم ؛ ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما ، وشدة ألفتهما . واللفظ يدل على الشروق والغروب . كما يدل على مكانى الشروق والغروب . وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المتجبرين أن يدعى تصريفهما . فمن يصرفهما إذن ومن ينشئهما بهذا الاطراد الذى لا يتخلف مرة ولا يبطىء عن أجله المرسوم ؟ إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هزا ، ويوقظ العقول الغافية إيقاظا . وموسى — عليه السلام — يثير مشاعرهم ، ويدعوهم إلى التدبر والتفكير : « إن كنتم تعقلون » . .

والطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب ، وصحوة القلوب ؛ ولا يكره أحدا كما يكره الداعين إلى الوعى واليقظة ؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية .

ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور ، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب . فينهى الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح ، الذى يعتمد عليه الطغاة عند ما يسقط فى أيديهم وتخذلهم البراهين :

« قال : لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين [1] » . .

هـذه هى الحجة وهذا هو الدليل : التهديد بأن يسلكه فى عداد المسجونين . فليس السجن عليه ببعيد. وما هو بالإجراء الجديد ! وهذا هو دليل العجز ، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع . وتلك سمة الطغاة وطريقهم فى القديم والجديد !

غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه . . وكيف وهو رسول الله ؟ والله معه ومع أخيه ؟ فإذا هو يفتح الصفحة التى أراد فرعون أن يغلقها ويستريح . يفتحها بقول جديد ، وبرهان جديد :

« قال : أولو جئتك بشىء مبين ؟ » . .

وحتى لو جئتك ببرهان واضح على صدق رسالتى فإنك تجعلنى من المسجونين ؟ وفى هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى ؛ ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته ، وهو يدعى أنه مجنون . ومن ثم وجد نفسه مضطرا أن يطلب منه الدليل :

« قال : فأت به إن كنت من الصادقين » . .

إن كنت من الصادقين فى دعواك ؛ أو إن كنت من الصادقين فى أن لديك شيئا مبينا . فهو ما يزال يشكك فى موسى ، خيفة أن تترك حجته فى نفوس القوم شيئا .

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين ؛ وقد أخرهما حتى بلغ التحدى من فرعون أقصاه :

« فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » . .

والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلا إلى ثعبان تدب فيه الحياة ، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلا . يدل على هذا بقوله : « فإذا هى » فلم يكن الأمر تخييلا ، كما هو الحال فى السحر الذى لا يغير طبائع الأشياء ، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة .

---

(١) يقال هنا ما قيل من قبل فى قوله : « من المرسلين » .

ومعجزة الحياة التى تدب من حيث لايعلم البشر ، معجزة تقع فى كل لحظة ،ولـكن الناس لا يلقون لها بالا ، لطول الألفة والتـكرار ، أو لأنهم لايشهدون التحول على سبيل التحدى . فأما فى مثل هذا المشهد . وموسى — عليه السلام — يلقى فى وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يزلزل ويرهب .

وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها ؛ فأسرع يقاومها ويدفعها ؛ وهو يحس ضعف موقفه ، ويكاد يتملق القوم من حوله ؛ ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ، ليغطى على وقع المعجزة المزلزلة :

« قال للملإ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضـكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ » . .

وفى قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كان يسميها سحرا ؛ فهو يصف صاحبها بأنه ساحر « عليم » . ويبدو ذعره من تأثر القوم بها فهو يغريهم به : « يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » . ويبدو تضعضعه وتهاويه ، وتواضعه للقوم الذين يجعل نفســه لهم إلها ، فيطلب أمرهم ومشورتهم : « فماذا تأمرون ؟ » ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون !

وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم . عندئذ يلينون فى القول بعد التجبر . ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام . ويتظاهرون بالشورى فى الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى : ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون !

وأشار عليه الملأ ؛ وقد خدعتهم مكيدته ، وهم شركاء فرعون فى باطله ، وأصحاب المصلحة فى بقاء الأوضاع التى تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان ؛ وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير ، حين ترى معجزتى موسى وتسمع إلى ما يقول . . أشاروا عليه أن يلقى سحره بسحر مثله ، بعد التهيئة والاستعداد :

« قالوا : أرجه وأخاه . وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم » . .

أى أمهله وأخاه إلى أجل ؛ وابعث رسلك إلى مدائن مصر الـكبرى ، يجمعون السحرة المهرة ، لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه .

***

وهنا يسدل الستار على هذا المشهد ليرفع على مشهد السحرة يحشدون ، والناس يجمعون للمباراة ، وتبث فيهم الحماسة للسحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان ؛ وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل ، أو بين الإيمان والطغيان .

« فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ؟ » . .

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير : « هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة ؟ » هل لكم فى التجمع وعدم التخلف عن الموعد ، لنترقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلى ! والجماهير دائما تتجمع لمثل هـذه الأمور ، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون ، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات ، ليلهوها عما تعانى من ظلم وكبت وبؤس . وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى عليه السلام !

* * *

ثم يجىء مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المباراة ؛ يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين ؛ ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم !

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ، وإنكم إذن لمن المقربين » . .

وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية ؛ تبذل مهارتها فى مقابل الأجر الذى تنتظره ؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية ، ولا شىء سوى الأجر والمصلحة . وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائما فى كل مكان وفى كل زمان .

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم فى الخداع . وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر . يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه . وهو بزعمه الملك والإله !

* * *

ثم إذا مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسام :

« قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين . قالوا : لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » . .

ويبدأ المشهد هادئاً عاديا . إلا أنه يشى منذ البدء باطمئنان موسى إلى الحق الذى معه ؛ وقلة اكتراثه لجموع السحرة المحشودين من المدائن ، المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة ، ووراءهم فرعون وملؤه ، وحولهم تلك الجماهير المضللة المخدوعة .. يتجلى هذا الاطمئنان فى تركه إياهم يبدأون :

« قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون » . .

وفى التعبير ذاته ما يشى بالاستهانة : ألقوا ما أنتم ملقون » . . بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام .

وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزته :

« فألقوا حبالهم وعصيهم ؛ وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون » . .

ولا يفصل السياق هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيهم ، كما فصله فى سورة الأعراف وطه ، ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق ، وينتهى مسارعا إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل ؛ لأن هذا هو هدف السورة الأصيل .

« فألقى موسى عصاه ، فإذا هى تلقف ما يأفكون » . .

ووقعت المفاجأة المذهلة التى لم يكن يتوقعها كبار السحرة ؛ فلقد بذلوا غاية الجهد فى فنهم الذى عاشوا به وأتقنوه ؛ وجاءوا بأقصى مايملك السحرة أن يصنعوه . وهم جمع كثير . محشود من كل مكان . وموسى وحده ، وليس معه إلا عصاه . ثم إذا هى تلقف ما يأفكون ؛ واللقف أسرع حركة للأكل . وعهدهم بالسحر أن يكون تخييلا ، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم

وعصيهم حقا . فلاتبقى لها أثرا . ولو كان ماجاء به موسى سحرا ، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها . ولـكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلا !

عندئذ لا يملـكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذى لا يقبل جدلا . وهم أعرف الناس بأنه الحق :

« فألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون » . .

وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم ، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضيـة . ولـكن الحق الذى مس قلوبهم قد حولهم تحويلا . لقد كانت هزة رجتهم رجا ، وخضتهم خضا ؛ ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم ، فأزالت عنها ركام الضلال ، وجعلتها صافية حيه خاشعة للحق ، عامرة بالإيمان ، فى لحظات قصار . فإذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجدا ، بغير إرادة منهم ، تتحرك ألسنتهم ، فتنطلق بكلمة الإيمان ، فى نصاعة وبيان : « آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون » .

وإن القلب البشرى لعجيب غاية العجب ، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلا . وصدق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « مامن قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمان . إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه »[1] . وهكذا انقلب السحرة المأجورون ، مؤمنين من خيار المؤمنين . على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه . لا يفـكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان فى وجه الطاغية من عواقب ونتائج ، ولا يعنيهم ماذا يفعل أو ماذا يقول .

ولا بد أن كان لهذا الانقلاب المفاجئ وقع الصاعقة على فرعون وملئه . فالجماهير حاشدة . وقد عبأهم عملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المبـاراة . عبأوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلى ، ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ، ويريد أن يجعل الحـكم لقومه ؛ وأن السحرة سيغلبونه ويفحمونه . . ثم ها هم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته . ثم يغلبون حتى ليقرون بالغلب ؛ ويعترفون بصدق موسى فى رسالته من عند الله ، ويؤمنون برب العالمين الذى أرسله ، ويخلعون عنهم عبادة فرعون ، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته ، وانتظروا أجره ، واستفتحوا بعزته !

(١) أخرجه الشيخان .

وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون ، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش. أسطورة الألوهية ، أو بنوته للآلهة ــ كما كان شائعا فى بعض العصور ــ وهؤلاء هم السحرة . والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلا كهنة المعابد فى طول البلاد وعرضها . ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين ، رب موسى وهارون ، والجماهير تسير وراء الكهنة فى معتقداتهم التى يلهونهم بها . فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة ؟ والقوة وحدها بدون عقيدة لا تقيم عرشا ولا تحمى حكما .

إن لنا أن نقدر ذعر فرعون لهذه المفاجأة ، وذعر الملأ من حوله ، إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة ؛ وهى إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذى لا يملكون معه إلا أن يلقوا سجدا معترفين منيبين .

عندئذ جن جنون فرعون ، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال . بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى !

« قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين » ..

« آمنتم له قبل أن آذن لكم » . . لم يقل آمنتم به . إنما عده استسلاما له قبل إذنه . على طريقة المناورات التى يدبرها صاحبها وهو مالك لإرادته ، عارف بهدفه ، مقدر لعاقبته . ولم يشعر قلبه بتلك اللمسة التى مست قلوبهم . ومتى كان للطغاة قلوب تشعر بمثل هذه اللمسات الوضيئة ؟ ثم سارع فى اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير : « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » وهى تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة ــ وهم من الكهنة ــ كانوا يتولون تربية موسى فى قصر فرعون أيام أن تبناه ، أو كان يختلف إليهم فى المعابد . فارتكن فرعون إلى هذه الصلة البعيدة ، وقلب الأمر فبدلا من أن يقول : إنه لتلميذكم قال : إنه لكبيركم . ليزيد الأمر ضخامة وتهويلا فى أعين الجماهير !

ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين :

« فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين » . .

إنها الحماقة التى يرتكبها كل طاغية ، حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه ، يرتكبها

فى عنف وغلظة وبشاعة ، بلا تحرج من قلب أو ضمير .. وإنها لـكلمة فرعون الطاغية المتجبر الذى يملك تنفيذ ما يقول .. فما تـكون كلمة الفئة المؤمنة التى رأت النور !

إنها كلمة القلب الذى وجد الله فلم يعد يحفل مايفقد بعد هذا الوجدان . القلب الذى اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان . القلب الذى يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير :

« قالوا : لا ضير . إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » . .

لا ضير . لاضير فى تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف[1] . لاضير فى التصليب والعذاب . لا ضير فى الموت والاستشهاد . . لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . . وليـكن فى هذه الأرض ما يكون : فالمطمع الذى نتعلق به ونرجوه « أن يغفر لنا ربنا خطايانا » جزاء « أن كنا أول المؤمنين » .. وأن كنا نحن السابقين ..

يالله ! يالروعة الإيمان إذ يشبرق فى الضمائر . وإذ يفيض على الأرواح . وإذ يسكب الطمأنينة فى النفوس . وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين . وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر ، فإذا كل ما فى الأرض تافه حقير زهيد .

هنا يسدل السياق الستار على هذه الروعة الغامرة . لا يزيد شيئا . ليبقى للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق . وهو يربى به النفوس فى مكة وهى تواجه الأذى والـكرب والضيق ويربى به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب .

فأما بعد ذلك فالله يتولى عباده المؤمنين . وفرعون يتآمر ويجمع جنوده أجمعين :

«وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون .. فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون » . .

وهنا فجوة فى الوقائع والزمن لا تذكر فى هذا الموضع . فقد عاش موسى وبنو إسرائيل فترة بعد المباراة ، وقعت فيها الآيات الأخرى المذكورة فى سورة الأعراف[2] قبل أن يوحى

---

(١) اليد اليمنى مع الرجل اليسرى . واليد اليسرى مع الرجل اليمنى .

(٢) الجزء التاسع من الظلال ص ٢٨ — ٣٣ .

الله لموسى بالرحيل بقومه . ولكنّ السياق هنا يطويها ليصل إلى النهاية المناسبة لموضوع السورة واتجاهها الأصيل .

لقد أوحى الله إلى موسى إذن أن يسرى بعباده ، وأن يرحل بهم ليلا ، بعد تدبير وتنظيم . ونبأه أن فرعون سيتبعهم بجنده ؛ وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (وهو فى الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات) .

وعلم فرعون بخروج بنى إسرائيل خلسة ، فأمر بما يسمى « التعبئة العامة » وأرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له الجنود ، ليدرك موسى وقومه ، ويفسد عليهم تدبيرهم ؛ وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير !

وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند . . ولكن هذا الجمع قد يشى بانزعاج فرعون ، وبقوة موسى ومن معه وعظم خطرهم ، حتى ليحتاج الملك الإله — بزعمه ! — إلى التعبئة العامة . ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين :

« إن هؤلاء لشرذمة قليلون » !

ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم ، والاحتشاد لهم ، وهم شرذمة قليلون !

« وإنهم لنا لغائظون » . .

فهم يأتون من الأفعال والأقوال مايغيظ ويغضب ويثير !

وإذن فلهم شأن وخطر على كل حال ! فليقل العملاء : إن هذا لا يهم فنحن لهم بالمرصاد :

« وإنا لجميع حاذرون » . .

مستيقظون لمكائدهم ، محتاطون لأمرهم ، ممسكون بزمام الأمور !

إنها حيرة الباطل المتجبر دائما فى مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين !

***

وقبل أن يعرض المشهد الأخير ، يعجل السياق بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وملئه مما كانوا فيه من متاع . ووراثة بنى إسرائيل المستضعفين :

« فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك ، وأورثناها بنى إسرائيل » . .

لقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ويقفون أثرهم . فكانت خرجتهم هـذه هى الأخيرة . وكانت إخراجا لهم من كل ماهم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ؛ فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم ! لذلك يذكر هذا المصير الأخير عقب خروجهم يقفون أثر المؤمنين . تعجيلا بالجزاء على الظلم والبطر والبغى الوخيم .

« وأورثناها بنى إسرائيل » . .

ولا يعرف أن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ؛ وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه . لذلك يقول المفسرون : إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه . فهى وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم .

* * *

وبعد هـذا الاعتراض يجىء المشهد الحاسم الأخير :

« فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قل أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين » . .

لقد أسرى موسى بعباد الله ، بوحى من الله وتدبير . فأتبعهم جنود فرعون فى الصباح بمكر من فرعون وبطر . ثم هاهو ذا المشهد يقترب من نهايته . والمعركة تصل إلى ذروتها . . إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين ولا هم يملكون خوضه وما هم بمسلحين . وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكى السلاح يطلبونهم ولا يرحمون !

وقالت دلائل الحال كلها : أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم :

« قال أصحاب موسى : إنا لمدركون » . .

وبلغ الكرب مداه ، وإن هى إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين !

ولكن موسى الذى تلقى الوحى من ربه ، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه ، واليقين بعونه ، والتأكد من النجاة ، وإن كان لا يدرى كيف تكون . فهى لا بد كائنة والله هو الذى يوجهه ويرعاه .

« قال : كلا إن معى ربى سيهدين » . .

كلا . فى شدة وتوكيد . كلا لن نكون مدركين. كلا لن نكون هالكين . كلا لن نكون مفتونين . كلا لن نكون ضائعين «كلا إن معى ربى سيهدين» بهذا الجزم والتأكيد واليقين .

وفى اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير فى ليل اليأس والكرب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون :

« فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر » . .

ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب بعصاه البحر . فهذا مفهوم . إنما يعجل بالنتيجة :

« فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم » . .

ووقعت المعجزة ، وتحقق الذى يقول عنه الناس : مستحيل . لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور . والله الذى خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد .

وقعت المعجزة وانكشف بين فرقى الماء طريق . ووقف الماء على جانبى الطريق كالطود العظيم . واقتحم بنو إسرائيل . .

ووقف فرعون مع جنوده مبغوتا مشدوها بذلك المشهد الخارق ، وذلك الحادث العجيب .

ولا بد أن يكون قد وقف مبهوتا فأطال الوقوف ـ وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم فى طريق مكشوف ـ قبل أن يأمر جنوده بالاقتحام وراءهم فى ذلك الطريق العجيب .

وتم تدبير الله . فخرج بنو إسرائيل من الشاطىء الآخر ، بينما كان فرعون وجنوده بين فرقى الماء أجمعين . وقد قربهم الله لمصيرهم المحتوم :

« وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين » . .

« ثم أغرقنا الآخرين » !!!

ومضت آية فى الزمان ، تتحدث عنها القرون . فهل آمن بها الكثيرون ؟

« إن فى ذلك لآية . وما أكثرهم مؤمنين » .

فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتما . وإن خضع لها الناس قسرا . إنما الإيمان هدى فى القلوب .

« وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

التعقيب المعهود فى السورة بعد عرض الآيات والتكذيب ...

« وَاْتلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَاتَعْبُدُونَ ؟ * قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ؛ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟ * قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ : أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ؟ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ .

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

« وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ؟ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ : * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ !

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » ..

مضت قصة موسى –عليه السلام– مع فرعون وملئه ؛ وانتهت بتلك النهاية ، وفيها البشرى للمؤمنين المستضعفين المضطهدين – كما كانت القلة المؤمنة يومذاك فى مكة – وفيها الدمار للظالمين المتجبرين الذين يشبه موقفهم موقف المشركين .

فالآن تتبعها قصة إبراهيم – عليه السلام – وقومه . ويؤمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يتلوها على المشركين . ذلك أنهم يزعمون أنهم ورثة إبراهيم ، وأنهم على دينه القديم ؛ وهم يشركون بالله ، ويقيمون الأصنام لعبادتها فى بيته الحرام ، الذى بناه إبراهيم خالصا لله .. فاتل عليهم نبأ إبراهيم ليتبينوا منه حقيقة مايزعمون .

والقصص فى هذه السورة لايتبع الخط التاريخى ، لأن العبرة وحدها هى المقصودة . فأما فى سورة الأعراف مثلا فقد كان الخط التاريخى مقصودا ، لعرض خط وراثة الأرض ، وتتابع الرسل من عهد آدم –عليه السلام– فمضى القصص فيها يتبع خط التاريخ ، منذ الهبوط من الجنة ، وبدء الحياة البشرية .

والحلقة التى تعرض هنا من قصة إبراهيم – عليه السلام – هى حلقة الرسالة إلى قومه ، وحواره معهم حول العقيدة ، وإنكار الآلهة المدعاة ، والاتجاه بالعبادة إلى الله . والتذكير باليوم الآخر. يعقب هذا مشهد كامل من مشاهد القيامة ، يتنكر فيه العباد للآلهة ، ويندمون على الشرك الذى انتهى بهم إلى ماهم فيه . كأنهم قد صاروا فعلا إلى ماهم فيه ! وهنا عبرةالقصة للمشركين .. ومن ثم يتوسع فى الحديث عن مقومات عقيدة التوحيد ، وفساد عقيدة الشرك ؛ ومصير المشركين فى يوم الدين . لأن التركيز متجه إليها . ويختصر ما عدا ذلك مما يفصله فى سور أخرى .

وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم – عليه السلام – فى البقرة ، والأنعام ، وهود ، وإبراهيم ، والحجر ، ومريم ، والأنبياء ، والحج . وكانت فى كل سورة مناسبة لسياقها العام . وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة وجوها وظلها .

عرضت فى سورة البقرة حلقة بنائه للبيت هو وإسماعيل ، ودعائه أن يجعل الله البلد الحرام آمنا ، وإعلانه أن وراثة البيت ووراثة بانيه إنما هى للمسلمين ، الذين يتبعون ملته ، لا لمن يدعون بالنسب وراثته . وكان هذا بصدد مخالفات بنى إسرائيل ، وطردهم ولعنهم ، وتوريث دين إبراهيم وبيته للمسلمين ..

وعرضت كذلك حلقة محاجته للملك الكافر فى صفة الله الذى يحي ويميت ، والذى يأتى بالشمس من المشرق ، وتحديه للملك أن يأتى بها من المغرب . فبهت الذى كفر .

كما عرضت حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحي الموتى ، وأمره بذبح أربعة من الطير ، وتوزيع أشلائهن على الجبال ، ثم إحياؤها بين يديه ، فجاءت تسعى إليه .

وهذا وذلك فى معرض الحديث فى السورة عن آيات الله وقدرته على الإماتة والإحياء .

وعرضت فى الأنعام حلقة بحثه عن ربه ، واهتدائه إليه ، بعد تأمل فى النجوم والقمر والشمس ، وتتبع مشاهد الكون . وكان ذلك فى السورة التى تدور حول العقيدة ، وآيات الله فى الكون ، ودلالتها على الصانع المبدع الذى لا شريك له .

وعرضت فى سورة هود حلقة تبشيره بإسحاق ، وكان ذلك فى سياق قصة لوط ، ومرور الملائكة المكلفين تدمير قريته فى طريقهم بإبراهيم . وفيها تبدو رعاية الله للمختارين من عباده وتدمير الفاسقين .

وعرضت فى سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت المحرم لمن أسكنه من ذريته بواد غير زرع ؛ وحمده على أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق ؛ وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة هو وذريته ، وأن يقبل دعاءه ، ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . . وكان سياق السورة كله هو عرض أمة الرسل ، برسالة واحدة ، هى التوحيد ؛ وعرض المكذبين بأمة الرسل صفا واحدا كذلك ؛ وكأنما الرسالة شجرة ظليلة فى هجير الكفر وصحراء الجحود !

وعرضت فى سورة الحجر الحلقة التى عرضت فى سورة هود مع شىء من التفصيل، فى صدد ذكر رحمة الله بعباده المؤمنين ، وعذابه للعصاة المذنبين .

وعرضت فى سورة مريم حلقة دعوته فى رفق لأبيه ، وغلظة أبيه عليه ، واعتزاله لأبيه وقومه ، وهبة إسماعيل وإسحاق له . وذلك فى السورة التى تعرض رعاية الله للمصطفين من عباده . وجوها كله تظلله الرحمة والود واللين .

وعرضت فى سورة الأنبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه ، وزرايته على أصنامهم . وتحطيم هذه الأصنام ، وإلقائه فى النار التى كانت بردا وسلاما عليه بأمر الله ، ونجاته هو وابن أخيه لوط إلى

الأرض التى باركنا فيها للعالمين . وذلك فى صدد استعراض أمة الرسل ، ورعاية الله لهذه الأمة واتجاهها إلى عبادة الله الواحد الذى ليس له شريك .

ووردت فى سورة الحج إشارة إلى أمر بتطهير البيت للطائفين والعاكفين . .

* * *

« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ » . .

اتل عليهم نبأ إبراهيم الذى يزعمون أنهم ورثته ، وأنهم يتبعون ديانته . اتله عليهم وهو يستنكر ما كان يعبده أبوه وقومه من أصنام كهذه الأصنام التى يعبدها المشركون فى مكة ؛ وهو يخالف أباه وقومه فى شركهم ، وينكر عليهم ماهم عليه من ضلال ، ويسألهم فى عجب واستنكار : « ما تعبدون ؟ »

« قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين » !

وهم كانوا يسمون أصنامهم آلهة . فحكاية قولهم : إنها أصنام . تنبئ بأنهم لم يكونوا يملكون إنكار أنها أصنام منحوتة من الحجر ، وأنهم مع ذلك يعكفون لها ، ويدأبون على عبادتها . وهذه نهاية السخف . ولكن العقيدة متى زاغت لم يفطن أصحابها إلى ماتنحط إليه عبادتهم وتصوراتهم ومقولاتهم !

ويأخذ إبراهيم — عليه السلام — يوقظ قلوبهم الغافية ، وينبه عقولهم المتبلدة ، إلى هذا السخف الذى يزاولونه دون وعى ولا تفكير :

« قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ » . .

فأقل مايتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع كعابده الذى يتوجه إليه بالعبادة والابتهال ! وهذه الأصنام لاتسمع عبادها وهم يتوجهون إليها بالعبادة ، ويدعونها للنفع والضر . فإن كانت صماء لا تسمع فهل هى تملك النفع والضر ؟ لا هذا ولا ذاك يمكن أن يدعوه !

ولم يجب القوم بشىء عن هذا فهم لايشكون فى أن إبراهيم إنما يتهكم ويستنكر ؛ وهم لايملكون حجة لدفع مايقول . فإذاتكلموا كشفوا عن التحجر الذى يصيب المقلدين بلاوعى ولا تفكير :

« قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » . .

إن هـذه الأصنام لا تسمع ولا تضر ولا تنفع . ولـكنا وجدنا آباءنا يعـكفون عليها ، فعكفنا عليها وعبدناها !

وهو جواب مخجل . ولـكن المشركين لم يخجلوا أن يقولوه ، كما لم يخجل المشركون فى مكة أن يفعلوه . فقد كان فعل الآباء لأمر كفيلا باعتباره دون بحث ؛ بل لقد كان من العوائق دون الإسلام أن يرجع المشركون عن دين آبائهم ، فيخلوا باعتبار أولئك الآباء ، ويقروا أنهم كانوا على ضلال . وهذا مالا يجوز فى حق الذاهبين ! وهكذا تقوم مثل هـذه الاعتبارات الجوفاء فى وجه الحق ، فيؤثرونها على الحق ، فى فترات التحجر العقلى والنفسى والانحراف التى تصيب الناس ، فيحتاجون معها إلى هزة قوية تردهم إلى التحرر والانطلاق والتفـكير .

وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم — على حلمه وأناته — إلا أن يهزهم بعنف ، ويعلن عداوته للأصنام ، وللعقيدة الفاسدة التى تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات !

« قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين » ..

وهـكذا لم يمنعه أن أباه وأن قومه يعبدون ما يعبدون ، أن يفارقهم بعقيدته ، وأن يجاهر بعداته لآلهتهم وعقيدتهم ، هم وآباؤهم — وهم آباؤه — الأقدمون !

وكذلك يعلم القرآن المؤمنين أن لا مجاملة فى العقيدة لوالد ولا لقوم ؛ وأن الرابطة الأولى هى رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هى قيمة الإيمان . وأن ما عداه تبع له يكون حيث يكون .

واستثنى إبراهيم « رب العالمين » من عدائه لما يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون : « فإنهم عدو لى إلا رب العالمين » . . فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عبد الله ، قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف ؛ وقد يكون من عبد الله ولـكن أشرك معه آلهة أخرى مدعاة . فهو الاحتياط إذن فى القول ، والدقة الواعية فى التعبير ، الجديران بإبراهيم — عليه السلام — فى مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق .

ثم يأخذ إبراهيم — عليه السلام — فى صفة ربه . رب العالمين . وصلته به فى كل حال وفى كل حين . فنحس القربى الوثيقة ، والصلة الندية ، والشعور بيد الله فى كل حركة ونأمة ، وفى كل حاجة وغاية .

« الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » . .

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، واسترساله فى تصوير صلته به ، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه . وأنه يتطلع إليه فى ثقة ، ويتوجه إليه فى حب ؛ وأنه يصفه كأنه يراه ، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه . . والنغمة الرخية فى حكاية قوله فى القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل ، بالإيقاع العذب الرخى اللين المديد . .

« الذى خلقنى فهو يهدين » . . الذى أنشأنى من حيث يعلم ولا أعلم ؛ فهو أعلم بما هيئ وتكوينى ، ووظائفى ومشاعرى ، وحالى ومآلى : « فهو يهدين » إليه ، وإلى طريقى الذى أسلكه ، وإلى نهجى الذى أسير عليه . وكأنما يحس إبراهيم — عليه السلام — أنه عجينة طيعة فى يد الصانع المبدع ، يصوغها كيف شاء ، على أى صورة أراد . إنه الاستسلام المطلق فى طمأنينة وراحة وثقة ويقين .

« والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين » . . فهى الكفالة المباشرة الحانية الراعية ، الرفيقة الودود ، يحس بها إبراهيم فى الصحة والمرض . ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه — وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح — إنما يذكر ربه فى مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه . . ويشفيه . . ولا يذكره فى مقام الابتلاء حين يبتليه .

« والذى يميتنى ثم يحيين » .. فهو الإيمان بأن الله هو الذى يقضى الموت ، وهو الإيمان بالبعث والنشور فى استسلام ورضى عميق .

« والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » . . فأقصى مايطمع فيه إبراهيم — عليه السلام — النبى الرسول ، الذى يعرف ربه هذه المعرفة ، ويشعر بربه هذا الشعور ، ويحس فى قرارة نفسه هذه القربى .. أقصى مايطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين . فهو لا يبرىء نفسه ، وهو يخشى أن تكون له خطيئة ، وهو لا يعتمد على عمله ، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً ، إلا أنه يطمع فى فضل ربه ، ويرجو فى رحمته ، وهذا وحده هو الذى يطمعه فى العفو والمغفرة .

إنه شعور التقوى ، وشعور الأدب ، وشعور التحرج ؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهى عظيمة عظيمة ، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل .

وهكذا يجمع إبراهيم فى صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين . والإقرار بتصريفه للبشر فى أدق شؤون حياتهم على الأرض . والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد . وهى العناصر التى ينكرها قومه ، وينكرها المشركون .

ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب فى دعاء رخى مديد ، يتوجه به إلى ربه فى إيمان وخشوع : « رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » . .

والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض ؛ ولا حتى صحة البدن . إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى ؛ تحركه مشاعر أصفى . ودعاء القلب الذى عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه. والذى ذاق فهو يطلب المزيد ؛ والذى يرجو ويخاف فى حدود ما ذاق وما يريد .

« رب هب لى حكما » . . أعطنى الحكمة التى أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة ، فأبقى على الدرب يصلنى بما هو أبقى .

« وألحقنى بالصالحين » . . يقولها إبراهيم النبى الكريم الأواه الحليم . فيا للتواضع ! ويا للتحرج ! ويا للإشفاق من التقصير ! ويا للخوف من تقلب القلوب ! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين ! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذى يلحقه بالصالحين !

« واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » .. دعوة تدفعه إليها الرغبة فى الامتداد ، لا بالنسب ولكن بالعقيدة؛ فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيرا لسان صدق يدعوهم إلى الحق، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم . ولعلها هى دعوته فى موضع آخر . إذ يرفع قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثم يقول : « ربنا واجعلنا مسلمين لك . ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم[1] » .. وقد استجاب الله له ، وحقق دعوته ، وجعل له لسان صدق فى الآخرين ، وبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .. وكانت الاستجابة بعد آلاف من السنين . هى فى عرف الناس أمد طويل ، وهى عند الله أجل معلوم ، تقتضى حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه .

---

(١) الآيات ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة البقرة .

« واجعلني من ورثة جنة النعيم » .. وقد دعا ربه — من قبل — أن يلحقه بالصالحين، بتوفيقه إلى العمل الصالح ، الذى يسلكه فى صفوفهم . وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون .

« واغفر لأبى إنه كان من الضالين » .. ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم — عليه السلام — من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد . ولكنه كان قد وعده أن يستغفر له ، فوفى بوعده . وقد بين القرآن فيما بعد أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ؛ وقرر أن إبراهيم استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » وعرف أن القرابة ليست قرابة النسب ، إنما هى قرابة العقيدة . . وهذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة . فالرابطة الأولى هى رابطة العقيدة فى الله ، ولا تقوم صلة بين فردين من بنى البشر إلا على أساسها . فإذا قطعت هذه الصلة انبتت سائر الوشائج ؛ وكانت البعدى التى لا تبقى معها صلة ولا وشيجة .

« ولا تخزنى يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .. ونستشف من قولة إبراهيم — عليه السلام — : « ولا تخزنى يوم يبعثون » مدى شعوره بهول اليوم الآخر ؛ ومدى حيائه من ربه ، وخشيته من الخزى أمامه ، وخوفه من تقصيره . وهو النبى الكريم . كما نستشف من قوله : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم . وإدراكه كذلك لحقيقة القيم . فليست هنالك من قيمة فى يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص . إخلاص القلب كله لله ، وتجرده من كل شائبة ، ومن كل مرض ، ومن كل غرض . وصفائه من الشهوات والانحرافات . وخلوه من التعلق بغير الله . فهذه سلامته التى تجعل له قيمة ووزنا « يوم لا ينفع مال ولا بنون » ؛ ولا ينفع شىء من هذه القيم الزائلة الباطلة ، التى يتكالب عليها المتكالبون فى الأرض ؛ وهى لا تزن شيئا فى الميزان الأخير !

وهنا يرد مشهد من مشاهد القيامة يرسم ذلك اليوم الذى يتقيه إبراهيم ؛ فكأنما هو حاضر ، ينظر إليه ويراه ، وهو يتوجه لربه بذلك الدعاء الخاشع المنيب :

« وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم : أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا

إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ! » .

لقد قربت الجنة وعرضت للمتقين ، الذين كانوا من عذاب ربهم مشفقين . ولقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاويين ، الذين ضلوا الطريق وكذبوا بيوم الدين ، وإنهم لعلى مشهد من الجحيم يقفون . حيث يسمعون التقريع والتأنيب ، قبل أن يكبكبوا فى الجحيم .. إنهم يسألون عما كانوا يعبدون من دون الله ــ وذلك تساوق مع قصة إبراهيم وقومه وما كان بينه وبينهم من حوار عما كانوا يعبدون ــ إنهم ليسألون اليوم : « أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ » أين هم « هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ » ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب . إنما هو سؤال لمجرد التقريع والتأنيب « فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون » .. كبكبوا .. وإننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام ، وصوت الكركبة الناشئ من الكبكبة ، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف . فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه . وإنهم لغاوون ضالون ، وقد كبكب معهم جميع الغاوون . هم « وجنود إبليس أجمعون » . والجميع جنود إبليس . فهو تعميم شامل بعد تخصيص .

ثم نستمع إليهم فى الجحيم .. إنهم يقولون لآلهتهم من الأصنام : «تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين » فنعبدكم عبادته . إما معه وإما من دونه . الآن يقولونها بعد فوات الأوان ! وهم يلقون التبعة على المجرمين منهم ، الذين أضلوهم وصدوهم عن الهدى . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات ، وأنه لا جدوى من توزيع التبعات : « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » فلا آلهة تشفع ، ولا صداقات تنفع .. وإذا لم تكن شفاعة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح مافاتنا فيها ؟ « فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » ! وما هو إلا التمنى . فلا رجعة ولا شفاعة فهذا يوم الدين !

ثم يجيء التعقيب المعهود : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

وهو نفس التعقيب الذى جاء فى السورة بعد عرض مصارع عاد وثمود وقوم لوط . كما جاء تعقيبا على كل آية من آيات الله وقعت للمكذبين . فهذا المشهد من مشاهد القيامة عوض فى سياق السورة عن مصارع المكذبين فى الدنيا . إذ يصور نهاية قوم إبراهيم . ونهاية الشرك

كافة . وهو موضع العبرة فى قصص السورة جميعا . ومشاهد القيامة فى القرآن تعرض كأنها واقعة، وكأنما تشهدها الأبصار حين تتلى ، وتتملاها المشاعر ، وتهتز بها الوجدانات . كالمصارع التى تمت على أعين الناس وهم يشهدون .

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوا : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ؟ * قَالَ : وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ .

« قَالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ : رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ، وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » . .

كما رجع السياق القهقرى فى التاريخ من قصة موسى إلى قصة إبراهيم ، كذلك يرجع القهقرى من قصة إبراهيم إلى قصة نوح . إن الخط التاريخى ليس هو المقصود هنا ، بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب .

وقصة نوح ، كقصة موسى وقصة إبراهيم ، تعرض فى سور شتى من القرآن . وقد عرضت من قبل فى سورة « الأعراف » فى الخط التاريخى للرسل والرسالات بعد هبوط آدم من الجنة

عرضا مختصرا ، يتلخص فى دعوته قومه إلى التوحيد ، وإنذارهم عذاب يوم عظيم ، واتهام قومه له بالضلال ، وعجبهم من أن يبعث الله إليهم رجلا منهم ، وتكذيبهم له . ومن ثم إغراقهم ونجاته هو ومن معه بدون تفصيل .

وعرضت فى سورة يونس باختصار كذلك فى نهاية رسالته ، إذ تحدى قومه فكذبوه . ثم كانت نجاته ومن معه فى الفلك ، وإغراق الآخرين .

وعرضت فى سورة « هود » بتفصيل فى قصة الطوفان والفلك وما بعد الطوفان كذلك من دعائه لربه فى أمر ابنه الذى أغرق مع المغرقين . وما كان بينه وبين قومه قبل ذلك من جدال حول عقيدة التوحيد .

وعرضت فى سورة « المؤمنون » فذكر منها دعوته لقومه إلى عبادة الله الواحد ، واعتراضهم عليه بأنه بشر منهم يريد أن يتفضل عليهم ؛ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، واتهامه بالجنون . ثم توجهه إلى ربه يطلب نصرته . وإشارة سريعة إلى الفلك والطوفان .

وهى تعرض فى الغالب فى سلسلة مع قصص عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين ــ وكذلك هى فى هذه السورة ــ وأظهر مافى الحلقة المعروضة هنا دعوته لقومه إلى تقوى الله ، وإعلانه أنه لا يطلب منهم أجرا على الهدى ، وإباؤه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف منهم الكبراء ــ وهذا ما كان يواجهه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى مكة سواء بسواء ــ ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه . واستجابة الله له بإغراق المكذبين وتنجية المؤمنين .

* * *

« كذبت قوم نوح المرسلين » . .

تلك هى النهاية . نهاية القصة . يبدأ بها لإبرازها منذ البداية . ثم يأخذ فى التفصيل .

وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحا . ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين . فالرسالة فى أصلها واحدة ، وهى دعوة إلى توحيد الله ، وإخلاص العبودية له . فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين ، فهذه دعوتهم أجمعين . والقرآن يؤكد هذا المعنى ويقرره فى مواضع كثيرة، بصيغ متعددة ، لأنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية ، تحتضن بها الدعوات جميعا ؛ وتقسم بها البشرية كلها إلى صفين : صف المؤمنين وصف الكافرين ، على مدار الرسالات ومدار القرون . وينظر المسلم فإذا الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هى أمته ، منذ

فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير . وإذا الصف الآخر هم الكفار فى كل ملة وفى كل دين . وإذا المؤمن يؤمن بالرسل جميعا ، ويحترم الرسل جميعا ، لأنهم جميعهم حملة رسالة واحدة هى رسالة التوحيد .

إن البشرية لا تنقسم فى تقدير المسلم إلى أجناس وألوان وأوطان . إنما تنقسم إلى أهل الحق وأهل الباطل . وهو مع أهل الحق ضد أهل الباطل . فى كل زمان وفى كل مكان . وهكذا يتوحد الميزان فى يد المسلم على مدار التاريخ كله ؛ وترتفع القيم فى شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن ، والقرابات الحاضرة أو الموغلة فى بطن التاريخ. ترتفع فتصبح قيمة واحدة . هى قيمة الإيمان يحاسب بها الجميع ، ويقوّم بها الجميع .

« كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين. فاتقوا الله وأطيعون » .

هذه هى دعوة نوح التى كذبه فيها قومه ـ وهو أخوهم ـ وكان الأليق بالأخوة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق . ولكن قومه لم يأبهوا لهذه الصلة ، ولم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم : « ألا تتقون ؟ » وتخافون عاقبة ما أنتم فيه ؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته ؟

وهذا التوجيه إلى التقوى مطرد فى هذه السورة . فهكذا قال الله عن فرعون وقومه لموسى وهو يكلفه التوجه إليهم . وهكذا قال نوح لقومه . وهكذا قال كل رسول لقومه من بعد نوح :

« إنى لكم رسول أمين» .. لا يخون ولا يخدع ولا يغش ، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً مما كلفه من التبليغ .

« فاتقوا الله وأطيعون » . . وهكذا يعود إلى تذكيرهم بتقوى الله ، ويحددها فى هذه المرة ، وينسبها إلى الله تعالى ، ويستجيش بها قلوبهم إلى الطاعة والتسليم .

ثم يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها ، فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله ، وما يطلب منهم أجراً جزاء هدايتهم إليه ، فهو يطلب أجره من رب الناس الذى كلفه دعوة الناس . وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنه كان دائماً ضروريا للدعوة الصحيحة ، تمييزا لها مما

عهده الناس فى الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد . وقد كان الكهنة ورجال الدين المنحرفون دائما مصدر ابتزاز للأموال بشتى الأساليب . فأما دعوة الله الحقة فكان دعاتها دائما متجردين ، لا يطلبون أجراً على الهدى . فأجرهم على رب العالمين .

وهنا يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة ، بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والاستغلال : « فاتقوا الله وأطيعون » .. ولكن القوم يطلعون عليه باعتراض عجيب . وهو اعتراض مكرور فى البشرية مع كل رسول :

« قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ »..

وهم يعنون بالأرذلين الفقراء . وهم السابقون إلى الرسل والرسالات ، وإلى الإيمان والاستسلام . لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة ، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة . ومن ثم فهم الملبون السابقون . فأما الملأ من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم ، وتقعد بهم مصالحهم ، القائمة على الأوضاع المزيفة ، المستمدة من الأوهام والأساطير ، التى تلبس ثوب الدين . ثم هم فى النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس ، حيث تسقط القيم الزائفة كلها ، وترتفع قيمة واحدة . قيمة الإيمان والعمل الصالح . قيمة واحدة ترفع قوما وتخفض آخرين . بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم .

ومن ثم يجيبهم نوح الجواب الذى يقرر القيم الثابتة ؛ ويحدد اختصاص الرسول ، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على مايعملون .

« قال : وما علمى بما كانوا يعملون ؟ إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين » .

والكبراء يقولون دائما عن الفقراء : إن عاداتهم وأخلاقهم لا ترضى العلية ، ولا تطاق فى أوساط الطبقة الراقية ذات الحس المرهف والذوق اللطيف ! فنوح يقول لهم : إنه لا يطلب إلى الناس شيئاً سوى الإيمان . وقد آمنوا. فأما عملهم قبله فموكول إلى الله ، وهو الذى يزنه ويقدره . ويجزيهم على الحسنات والسيئات . وتقدير الله هو الصحيح « وما تشعرون » بالقيم الحقة التى ترجح فى ميزان الله . وما وظيفتى إلا الإنذار والإفصاح : « إن أنا إلا نذير مبين » .

فلما أن واجههم نوح ـ عليه السلام ـ بحجته الواضحة ومنطقه المستقيم ؛ وعجزوا عن المضى

فى الجدل بالحجة والبرهان ، لجأوا إلى مايلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان . لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التى يعتمد عليها الطغاة فى كل زمان ومكان ، عندما تعوزهم الحجة ، ويعجزهم البرهان :

« قالوا : لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين » . .

وأسفر الطغيان عن وجهه الكالح ، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة ، وعرف نوح أن القلوب الجاسية لن تلين .

هنا توجه نوح إلى الولى الوحيد ، والناصر الفريد ، الذى لا ملجأ سواه للمؤمنين :

« قال : رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ، ونجنى ومن معى من المؤمنين» .

وربه يعلم أن قومه كذبوه . ولكنه البث والشكوى إلى الناصر المعين ، وطلب النصفة ، ورد الأمر إلى صاحب الأمر : « فافتح بينى وبينهم فتحا» يضع الحد الأخير للبغى والتكذيب : « ونجنى ومن معى من المؤمنين » . .

واستجاب الله لنبيه الذى يتهدده الطغيان بالرجم ، لأنه يدعو الناس إلى تقوى الله ، وطاعة رسوله ، لا يطالب على ذلك أجراً ، ولا يبتغى جاها ولا مالا :

« فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين » . .

هكذا فى إجمال سريع . يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والطغيان فى فجر البشرية . ويقرر مصير كل معركة تالية فى تاريخ البشرية الطويل .

ثم يجىء التعقيب المكرور فى السورة عقب كل آية من آيات الله العزيز الرحيم :

« إن فى ذلك لآية . وما أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

« كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ؟ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ؟ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ؟ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا ٱلَّذِى أَمَدَّكُمْ

بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

« قَالُوا : سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

« فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

وقوم هود كانوا يسكنون الأحقاف ، وهى جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن . وقد جاءوا بعد قوم نوح ، وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة من الطوفان الذى طهر وجه الأرضْ من العصاة .

وقد وردت هذه القصة فى الأعراف مفصلة وفى هود ، كما وردت فى سورة « المؤمنون » بدون ذكر اسم هود وعاد . وهى تعرض هنا مختصرة بين طرفيها : طرف دعوة هود لقومه ، وطرف العاقبة التى انتهى إليها المكذبون منهم . وتبدأ كما بدأت قصة قوم نوح :

« كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود: ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين » . .

فهى الكلمة الواحدة يقولها كل رسول : دعوة إلى تقوى الله وطاعة رسوله . وإعلان للزهد فيما لدى القوم من عرض الحياة ، وترفع عن قيم الأرض الزائلة ، وتطلع إلى ماعند الله من أجر كريم .

ثم يزيد ماهو خاص بحال القوم وتصرفاتهم ، فينكر عليهم الترف فى البنيان لمجرد التباهى بالمقدرة ، والإعلان عن الثراء ، والتكاثر والاستطالة فى البناء ؛ كما ينكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا ، وما يسخرونه فيها من القوى ، وغفلتهم عن تقوى الله ورقابته :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟ » . .

والريع المرتفع من الأرض . والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظر من بعد كأنه علامة . وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة . ومن ثم سماه عبثا . ولوكان لهداية المارة ، ومعرفة الاتجاه ماقال لهم: « تعبثون » .. فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد ، وتنفق البراعة ، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع ، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة .

ويبدو كذلك من قوله : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » أن عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا يذكر ؛ حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور ، وتشييد العلامات على المرتفعات ؛ وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت ، ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء .

ويمضي هود في استنكار ماعليه قومه :

« وإذا بطشتم بطشتم جبارين » . .

فهم عتاة غلاظ ، يتجبرون حين يبطشون ؛ ولا يتحرجون من القسوة في البطش . شأن المتجبرين المتزين بالقوة المادية التي يملكون .

وهنا يردهم إلى تقوى الله وطاعة رسوله ، لينهنه من هذه الغلظة الباطشة المتجبرة :

« فاتقوا الله وأطيعون » .

ويذكرهم نعمة الله عليهم بما يستمتعون به ويتطاولون ويتجبرون . وكان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا ، ويخشوا أن يسلبهم ماأعطاهم ، وأن يعاقبهم على ما أسرفوا في العبث والبطش والبطر الذميم !

« واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . .

وهكذا يذكرهم بالمنعم والنعمة على وجه الإجمال أولا : « أمدكم بما تعلمون » . وهو حاضر بين أيديهم ، يعلمونه ويعرفونه ويعيشون فيه ، ثم يفصل بعض التفصيل : « أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون » وهي النعم المعهودة في ذلك العهد ؛ وهي نعمة في كل عهد . . ثم يخوفهم عذاب يوم عظيم . في صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب . فهو أخوهم ، وهو واحد منهم ، وهو حريص ألا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذي لاشك فيه .

ولكن هذه التذكرة وهذا التخويف ،لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة. فإذا الإصرار والعناد والاستهتار .

« قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » !

فما يعنينا أن تعظ أو ألا تكون أصلا من الواعظين ! وهو تعبير فيه استهانة واستهتار وجفوة . يتبعه مايشى بالجمود والتحجر والاعتماد على التقليد !

« إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين » . .

فحجتهم فيما هم عليه ، وفيما يستنكره عليهم هود ، أنه خلق الأولين ونهجهم . وهم يسيرون على نهج الأولين ! ثم إنهم لينفون احتمال العذاب على خلق الأولين ! « وما نحن بمعذبين » !

ولا يستطرد السياق هنا فى تفصيل ماثار بينهم وبين رسولهم من جدل ؛ فيمضى قدما إلى النهاية :

« فكذبوه فأهلكناهم » . .

وفى كلمتين اثنتين ينتهى الأمر ؛ ويطوى قوم عاد الجبارون ؛ وتطوى مصانعهم التى يتخذون ؛ ويطوى ما كانوا فيه من نعيم ، من أنعام وبنين وجنات وعيون !

وكم من أمة بعد عاد ظلت تفكر على هذا النحو ، وتغتر هذا الغرور ، وتبعد عن الله كلما تقدمت فى الحضارة ؛ وتحسب أن الإنسان قد أصبح فى غنية عن الله ! وهى تنتج من أسباب الدمار لغيرها ، والوقاية لنفسها ، ماتحسبه واقياً لها من أعدائها . . ثم تصبح وتمسى فإذا العذاب يصب عليها من فوقها ومن تحتها . عن أى طريق .

« إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » . .

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ : أَلَا تَتَّقُونَ؟* إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ؟ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ .

« قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ .

« قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

« فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » . .

إنها ذات الدعوة بألفاظها يدعوها كل رسول . ويوحد القرآن عن قصد حكاية العبارة التى يلقيها كل رسول على قومه للدلالة على وحدة الرسالة جوهرا ومنهجا ، فى أصلها الواحد الذى تقوم عليه ، وهو الإيمان بالله وتقواه ، وطاعة الرسول الآتى من عند الله .

ثم يزيد ما هو من شأن ثمود خاصة ، وما تقتضيه طبيعة الموقف وطبيعة الظروف . إذ يذكرهم أخوهم صالح بما هم فيه من نعمة — (وقد كانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، وقد مر النبى — صلى الله عليه وسلم — بدورهم المدمرة مع صحابته فى غزوة تبوك) — ويخوفهم سلب هذه النعمة ، كما يخوفهم ما بعد المتاع من حساب على ما كان من تصرفهم فيه :

« أتتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ؟ » .

وإنهم ليعيشون بين هذا المتاع الذى يصوره لهم أخوهم صالح . ولكنهم يعيشون فى غفلة عنه لايفكرون فيمن وهبهم إياه ؛ ولا يتدبرون منشأه ومأتاه ، ولا يشكرون النعم الذى أعطاهم هـذا النعيم . فيأخذ رسولهم فى تصوير هـذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته ، ويخافوا زواله .

وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية ، وتنبه فيها الحرص والخوف : « أتتركون فيما هاهنا آمنين ؟ » أتظنون أنكم متروكون لهذا الذى أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة . . وسائر مايتضمنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم . . أتتركون فى هذا كله آمنين لايروعكم فوت ، ولا يزعجكم سلب ، ولا يفزعكم تغيير ؟

أتتركون فى هذا كله من جنات وعيون ، وزروع متنوعات ، ونخل جيدة الطلع ، سهلة

الهضم حتى كأن جناها مهضوم لايحتاج إلى جهد فى البطون ! وتتركون فى البيوت تنحتونها فى الصخور بمهارة وبراعة ، وفى أناقة وفراهة ؟

وبعد أن يلمس قلوبهم هذه اللمسات الموقظة يناديهم إلى التقوى،وإلى الطاعة ، وإلى مخالفة الملأ الجائرين البعيدين عن الحق والقصد ، الميالين إلى الفساد والشر .

« فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » . .

ولكن هذه اللمسات وهذه النداءات لا تصل إلى تلك القلوب الجاسية الجافية ، فلا تصغى لها ولا تلين :

« قالوا : إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين » . .

إنما أنت ممن سحرت عقولهم فهم يهرفون بما لا يعرفون ! كأنما الدعوة إلى الله لايدعوها إلا مجنون !

« ما أنت إلا بشر مثلنا » . . وتلك هى الشبهة التى ظلت تخايل للبشرية كلما جاءها رسول . فقد كان تصور البشرية القاصر للرسول عجيباً دائما ؛ وما كانت تدرك حكمة الله فى أن يكون الرسول بشرا ، وما كانت تدرك كذلك تكريم هذا الجنس البشرى باختيار الرسل منه ليكونوا رواد البشرية المتصلين بمصدر الهدى والنور .

وكانت البشرية تتصور الرسول خلقا آخر غير البشر . أو هكذا ينبغى أن يكون ؛ ما دام يأتى إليها بخبر السماء ، وخبر الغيب ، وخبر العالم المحجوب عن البشر . . ذلك أنها ما كانت تدرك سر هذا الإنسان الذى كرمه الله به ، وهو أنه موهوب القدرة على الاتصال بالملأ الأعلى وهو على هذه الأرض مقيم . يأكل وينام ويتزوج ويمشى فى الأسواق . ويعالج ما يعالجه سائر البشر من المشاعر والنوازع ، وهو متصل بذلك السر العظيم .

وكانت البشرية جيلا بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول تدل على أنه حقا مرسل من الله : «فأت بآية إن كنت من الصادقين » .. وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة ، فاستجاب الله لعبده صالح ، وأعطاه هذه الخارقة فى صورة ناقة ؛ لا نخوض فى وصفها كما خاض المفسرون القدامى ، لأنه ليس لدينا سند صحيح نعتمد عليه فى هذا الوصف . فنكتفى بأنها كانت خارقة كما طلبت ثمود .

« قال : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم » ..

لقد جاءهم بالناقة ، على شرط أن يكون الماء الذى يستقون منه يوما للناقة ويوما لهم ، لا يجورون عليها فى يومها ، ولا تجور عليهم فى يومهم ، ولا يختلط شرابها بشرابهم ، كما لا يختلط يومها بيومهم . ولقد حذرهم أن ينالوها بسوء على الإطلاق ، وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم .

فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين ؟ إنها لم تسكب الإيمان فى القلوب الجافة ؛ ولم تطلع النور فى الأرواح المظلمة . على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها . وإنهم لم يحفظوا عهدهم، ولم يوفوا بشرطهم :

« فعقروها فأصبحوا نادمين » .

والعقر : النحر . والذين عقروها منهم هم الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . ولقد حذرهم منهم صالح وأنذرهم فلم يخشوا النذير . ومن ثم كتبت خطيئتها على الجميع ، وكان الجميع مؤاخذين بهذا الإثم العظيم .

ولقد ندم القوم على الفعلة ، ولكن بعد فوات الأوان وتصديق النذير :

« فأخذهم العذاب » .. ولا يفصل نوعه هنا المسارعة والتعجيل !

ثم يجىء التعقيب : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ؟ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ : إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ .

« فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » . .

تجيء قصة لوط هنا . ومكانها التاريخي كان مع قصة إبراهيم . ولكن السياق التاريخي ليس ملحوظا فى هذه السورة ـ كما أسلفنا ـ إنما الملحوظ وحدة الرسالة والمنهج ، وعاقبة التكذيب : من نجاة للمؤمنين وهلاك للمكذبين .

ويبدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح . يستنكر استهتارهم ؛ ويستجيش فى قلوبهم وجدان التقوى ، ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة ، ويطمئنهم إلى أنه لن يفجعهم فى شيء من أموالهم مقابل الهدى . ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التى عرفوا بها فى التاريخ :

« أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون » .

والخطيئة المنكرة التى عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدة قرى فى وادى الأردن) هى الشذوذ الجنسى بإتيان الذكور ، وترك النساء . وهو انحراف فى الفطرة شنيع . فقد برأ الله الذكر والأنثى ؛ وفطر كلا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته فى امتداد الحياة عن طريق النسل ، الذى يتم باجتماع الذكر والأنثى . فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكونى العام ، الذى يجعل كل من فى الكون وكل ما فى الكون فى حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود . فأما إتيان الذكور الذكور فلا يرمى إلى هدف ، ولا يحقق غاية ، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه . وعجيب أن يجد فيه أحد لذة . واللذة التى يجدها الذكر والأنثى فى التقائهما إن هى إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة . فالانحراف عن ناموس الكون واضح فى فعل قوم لوط . ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا ، لخروجهم من ركب الحياة ، ومن موكب الفطرة ، ولتعريهم من حكمة وجودهم ، وهى امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد .

فلما دعاهم لوط إلى ترك هـذا الشذوذ ، واستنـكر ما هم فيه من ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ، والعدوان على الفطرة وتجاوز الحـكمة المـكنونة فيها .. تبين أنهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة ، وإلى سنة الفطرة :

« قالوا : لئن لم تنته يا لوط لتـكونن من المخرجين » .

وقد كان فيهم غريبا . وفد عليهم مع عمه إبراهيم حين اعتزل أباه وقومه ، وترك وطنه وأرضه ، وعبر الأردن مع إبراهيم والقلة التى آمنت معه . ثم عاش وحده مع هؤلاء القوم حتى أرسله الله إليهم ، ليردهم عما هم فيه ، فإذا بهم يهددونه بالإخراج من بينهم ، إذا لم ينته عن دعوتهم إلى سواء الفطرة القويم !

عندئذ لم يبق إلا أن يعالنهم بكراهة ما هم عليه من شذوذ ، فى تقزز واستبشاع :

« قال : إنى لعملـكم من القالين » . .

والقلى : الـكره البالغ . يقذف به لوط فى وجوههم فى اشمئزاز . ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله :

« رب نجنى وأهلى مما يعملون » . .

وهو لا يعمل عملهم ؛ ولـكنه يحس بفطرته الصادقة أنه عمل مردٍ مهلك . وهو فيهم. فهو يتوجه إلى ربه أن ينجيه وأهله مما سيأخذ به قومه من التدمير .

واستجاب الله دعوة نبيه :

« فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين » . .

هذه العجوز هى امرأته ـ كما يذكر فى سور أخرى ـ وقد كانت عجوز سوء تقر القوم على فعلتهم المنـكرة ، وتعينهم عليها !

« ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا ، فساء مطر المنذرين » . .

قيل خسفت قراهم وغطاها المـاء . ومنها قرية سدوم . ويظن أنها ثاوية تحت البحر الميت فى الأردن .

وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أن البحر الميت يغمر مدنا كانت آهلة بالسكان . وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر ، وبجواره المذبح الذى تقدم عليه القرابين .

وعلى أية حال فقد قص القرآن نبأ قرى لوط ـ على هذا النحو ـ وقوله الفصل فى الموضوع. ثم يعقب على مصرعهم بالتعقيب المكرور :

« إن فى ذلك لآية : وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

« كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ؟ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ .

« قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ : رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

« فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

« إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

وهذه قصة شعيب ـ ومكانها التاريخى قبل قصة موسى ـ تجىء هنا فى مساق العبرة كبقية القصص فى هذه السورة . وأصحاب الأيكة هم ـ غالبا ـ أهل مدين . والأيكة الشجر الكثيف الملتف . ويبدو أن مدين كانت تجاورها هذه الغيضة الوريفة من الأشجار . وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة .

وقد بدأهم شعيب بما بدأ به كل رسول قومه من أصل العقيدة والتعفف عن الأجر ، ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم :

« أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

وقد كان شأنهم ـ كما ذكر فى سورتى الأعراف وهود ـ أن يطففوا فى الميزان والمكيال ، وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائدا عن حقهم ، ويعطوا أقل من حق الناس ، ويشتروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع . ويبدو أنهم كانوا فى ممر قوافل التجارة ، فكانوا يتحكمون فيها . وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط فى هذا كله ، لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة . ولا تستطيع أن تغضى عن الحق والعدل فى معاملات الناس .

ثم استجاش شعيب مشاعر التقوى فى نفوسهم ، وهو يذكرهم بخالقهم الواحـــد . خالق الأجيال كلها والسابقين جميعا :

« واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين » .

فما كان منهم إلا أن يطلقوا عليه الاتهام بأنه مسحور ، فهو يخلط ويهذى بما يقول :

« قالوا : إنما أنت من المسحرين » . .

وإلا أن يستنكروا رسالته . فهو بشر مثلهم ، وما هكذا ـ فى زعمهم ـ يكون الرسول . ويرمونه بالكذب فيما يقول :

« وما أنت إلا بشر مثلنا . وإن نظنك لمن الكاذبين » .

وإلا أن يتحدوه أن يأتيهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقا فيما يدعيه ؛ وأن يسقط عليهم رجوما من السماء ، أو يحطمها عليهم ويسقطها قطعا :

« فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين » .

وهو تحدى المستهتر الهازىء المستهين ! وهو شبيه بتحدى المشركين للرسول الكريم . .

« قال : ربى أعلم بما تعملون » . .

ويعجل السياق بالنهاية دون تفصيل ولا تطويل .

« فكذبوه . فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم » .

قيل : أخذهم حر خانق شديد يكتم الأنفاس ويثقل الصدور . ثم تراءت لهم سحابة ، فاستظلوا بها ؛ فوجدوا لها بردا ، ثم إذا هى الصاعقة المجلجلة المدوية تفزعهم وتدمرهم تدميرا . وكان ذلك « يوم الظلة » فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم !

ثم يجيء التعقيب المكرور :

« إن فى ذلك لآية ، وماكان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

ويختم القصص فى السورة ليجيء على إثره التعقيب الأخير . .

« وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا : هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ؟

« أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ؟ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ .

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ .

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ .

« فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ

ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ؟ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ؟ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا ، وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا . وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » . .

انتهى القصص وكله يعرض قصة الرسل والرسالات . وقصة التكذيب والإعراض . وقصة التحدى والعقاب .

وقد بدأ هذا القصص بعد مقدمة السورة . والحديث فيها خاص برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومشركى قريش : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين . وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » . . ثم سيق القصص ، وكله نماذج للقوم يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون !

فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة الذى تضمنته المقدمة ؛ فجاء هذا التعقيب الأخير ، يتحدث عن القرآن ، فيؤكد أنه تنزيل رب العالمين ـ ومنه هذا القصص الذى مضت به القرون ، فإذا القرآن ينزل به من رب العالمين ـ ويشير إلى أن علماء بنى إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن ، لأنه مذكور فى كتب الأولين . إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ؛ ويزعمون أنه سحر أو شعر ، ولو أن أعجميا لا يتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين . لأن العناد هو الذى يقعد بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل ! وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما تتنزل بالأخبار على الكهان . وما هو كذلك بشعر ، فإن له منهجا ثابتا والشعراء يهيمون فى كل واد وفق الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيرا للمشركين ، قبل أن يأخذهم الله بالعذاب ، وقبل أن يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . .

* * *

« وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين » . .

والروح الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ نزل بهذا القرآن من عند الله على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أمين على مانزل به ، حفيظ عليه . نزل به على قلبه فتلقاه تلقيا مباشرا ، ووعاه وعيا مباشرا . نزل به على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين . هو لسان قومه الذى يدعوهم به ، ويتلو عليهم القرآن . وهم يعرفون مدى مايملك البشر أن يقولوا ؛ ويدركون أن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر ، وإن كان بلغتهم ؛ وأنه بنظمه ، وبمعانيه ، وبمنهجه ، وبتناسقه . يشى بأنه آت من مصدر غير بشرى بيقين .

وينتقل من هذا الدليل الذاتى إلى دليل آخر خارجى :

« وإنه لفى زبر الأولين . أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل » . .

فقد وردت صفة الرسول الذى ينزل عليه القرآن ، كما وردت أصول العقيدة التى جاء بها فى كتب الأولين . ومن ثم كان علماء بنى إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة ، وينتظرون هذا الرسول ، ويحسون أن زمانه قد أظلهم ؛ ويحدث بعضهم بعضا بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسى ، ولسان عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنهما ـ والأخبار فى هذا ثابتة كذلك بيقين .

إنما يكابر المشركون ويعاندون لمجرد المكابرة والعناد ، لا لضعف الحجة ولا لقصور الدليل ؛ فلو جاءهم به أعجمى لاينطق العربية فتلاه عليهم قرآنا عربيا ما آمنوا به ، ولا صدقوه ، ولا اعترفوا أنه موحى به إليه ، حتى مع هذا الدليل الذى يجبه المكابرين :

« ولو نزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » . .

وفى هذا تسرية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتصوير لعنادهم ومكابرتهم فى كل دليل . ثم يعقب على هذا بأن التكذيب مكتوب على القوم ملازم لهم بحكم عنادهم ومكابرتهم . فهكذا قضى الأمر أن يتلقوه بالتكذيب ، كأنه طبع فى قلوبهم لا يحول . حتى يأتيهم العذاب وهم فى غفلة لايشعرون :

« كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ، فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون » . .

والتعبير يرسم صورة حسية لملازمة التكذيب لهم . فيقول : إنه على هذه الهيئة . هيئة عدم

الإيمان والتكذيب بالقرآن . على هذه الهيئة نظمناه فى قلوبهم وأجريناه . فهو لا يجرى فيها إلا مكذبا به . ويظل على هيئته هذه فى قلوبهم « حتى يروا العذاب الأليم » . . « فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » . . وقد بقى بعضهم فعلا على هذا الوضع حتى فارق هذه الأرض بالقتل أو الموت ، ومن ثم إلى العذاب الأليم . . وفى هذه اللحظة فقط يفيقون :

« فيقولوا : هل نحن منظرون ؟ » . .

هل نحن مؤجلون إلى فرصة أخرى ، نصلح بها ما فات . وهيهات هيهات !

ولقد كانوا يستعجلون عذاب الله ، على سبيل الاستهزاء والاستهتار ، واغترارا بما هم فيه من متاع ، يبلد حسهم ، ويجعلهم يستبعدون النقلة منه إلى العذاب والنكال . شأنهم شأن ذوى النعمة قلما يخطر ببالهم أن تزول ؛ وقلما يتصورون أن تحول . فهو يوقظهم هنا من هذه الغفلة ، ويرسم لهم صورتهم حين يحل بهم مايستعجلون :

« أفبعذابنا يستعجلون ؟ أفرأيت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » . .

فيضع صورة الاستعجال بالعذاب فى جانب . وفى الجانب الآخر تحقق الوعيد . وإذا سنون المتاع ساقطة كأنها لم تكن ، لاتغنى عنهم شيئا ، ولا تخفف من عذابهم .

وفى الحديث الصحيح : « يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان فى الدنيا ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا والله يارب [١] » . .

ثم يخوفهم بأن الإنذار مقدمة الهلاك . وأن رحمة الله ألا يهلك قرية حتى يبعث فيها رسولا ، يذكرها بدلائل الإيمان :

« وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى . وما كنا ظالمين » . .

ولقد أخذ الله على البشر عهد الفطرة أن يوحدوه ويعبدوه . والفطرة بذاتها تحس بوجود الخالق الواحد مالم تفسد وتنحرف [٢] . وبث دلائل الإيمان فى الكون ، كلها يوحى بوجود

---

(١) رواه ابن كثير فى التفسير ، وقال : فى الحديث الصحيح .

(٢) يراجع تفسير : وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم » جزء ٩ ص ٥٨ .

الخالق الواحد . فإذا نسى الناس عهد الفطرة ، وأغفلوا دلائل الإيمان ، جاءهم نذير يذكرهم مانسوا ، ويوقظهم إلى ما أغفلوا . فالرسالة ذكرى تذكر الناسين وتوقظ الغافلين . زيادة فى العدل والرحمة « وما كنا ظالمين » فى أخذ القرى بعد ذلك بالعذاب والهلاك . فإنما هو جزاء النكسة عن خط الهدى ومنهج اليقين .

* * *

ثم يبدأ معهم جولة جديدة عن القرآن الكريم :

« وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » . .

لقد قرر فى الجولة الماضية أنه تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ؛ واستطرد مع تكذيبهم به ، واستعجالهم ما يتوعدهم من عذاب فيه . . وهاهو ذا ينفى دعواهم أنه من وحى الشياطين على طريقة الكهان ، الذين كانوا يزعمون أن الشياطين تأتيهم بخبر الغيب ، وبالسمع الذى يتكهنون فيه بالأخبار .

وما يليق هذا القرآن بالشياطين . وهو يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان . والشياطين تدعو إلى الضلال والفساد والكفر .

وما هم بمستطيعين أن يأتوا به . فهم معزولون عن سماع الوحى به من الله . إنما يتنزل به الروح الأمين ، بإذن من رب العالمين . وليس هذا بميسور للشياطين .

* * *

وهنا يلتفت بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحذره من الشرك ـ وهو أبعد من يكون عنه ـ ليكون غيره أولى بالحذر . ويكلفه إنذار عشيرته الأقربين . ويأمره بالتوكل على الله ، الذى يلحظه دائما ويرعاه :

« فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم » . .

وحين يكون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ متوعدا بالعذاب مع المعذبين ، لو دعا مع الله

إلها آخر . وهـذا محال ولـكنه فرض للتقريب . فـكيف يكون غيره ؟ وكيف ينجو من العذاب من يدعو هذه الدعوة من الآخرين ؟ ! وليس هنالك محاباة ، والعذاب لا يتخلف حتى عن الرسول ، لو ارتـكب هذا الإثم العظيم !

وبعد إنذار شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلف إنذار أهله . لتكون لمن سواهم عبرة، أن هؤلاء يتهددهم العذاب لو بقوا على الشرك لا يؤمنون : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . .

روى البخاري ومسلم أنه لما نزلت هـذه الآية أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصفا فصعد عليه ثم نادى : ياصباحاه ! فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يابنى عبد المطلب . يابنى فهر . يابنى لؤى . أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل تريد أن تغير عليـكم صدقتمونى ؟ » قالوا : نعم . قال : « فإنى نذير لـكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ! أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : « تبت يدا أبى لهب وتب ... »

وأخرج مسلم ـ بأسناده ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قلت : لمـا نزلت : « وأنذر عشيرتك الأقربين » قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « يافاطمة ابنة محمد . ياصفية ابنة عبد المطلب . يابنى عبد المطلب . لا أملك لـكم من الله شيئا . سلونى من مالى ماشئتم » .

وأخرج مسلم والترمذى ـ بأسناده عن أبى هريرة ـ قال : لمـا نزلت هذه الآية . دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشا فعم وخص فقال : يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار . يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار . يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار . فإنى والله لا أملك لـكم من الله شيئا . إلا أن لـكم رحما سأبلها ببلالها » ...

فهذه الأحاديث وغيرها تبين كيف تلقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأمر ، وكيف أبلغه لعشيرته الأقربين ، ونفض يده من أمرهم ، ووكلهم إلى ربهم فى أمر الآخرة ، وبين لهم أن قرابتهم له لا تنفعهم شيئا إذا لم ينفعهم عملهم ، وأنه لا يملك لهم من الله شيئا ، وهو رسول الله . . وهـذا هو الإسلام فى نصاعته ووضوحه ، ونفى الوساطة بين الله وعباده حتى عن رسوله الـكريم .

كذلك بين الله لرسوله كيف يعامل المؤمنين الذين يستجيبون لدعوة الله على يديه :

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ..

فهو اللين والتواضع والرفق فى صورة حسية مجسمة . صورة خفض الجناح ، كما يخفض الطائر جناحيه حين يهم بالهبوط . وكذلك كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع المؤمنين طوال حياته . فقد كان خلقه القرآن . وكان هو الترجمة الحية الكاملة للقرآن الكريم .

وكذلك بين الله له كيف يعامل العصاة فيكلهم إلى ربهم ، ويبرأ مما يعملون :

« فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون » ..

وكان هذا فى مكة ، قبل أن يؤمر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقتال المشركين .

ثم يتوجه به ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى ربه ، يصله به صلة الرعاية الدائمة القريبة :

« وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم » .

دعهم وعصيانهم ، متبرئا من أعمالهم ، وتوجه إلى ربك معتمدا عليه ، مستعينا فى أمرك كله به . ويصفه ــ سبحانه ــ بالصفتين المكررتين فى هذه السورة : العزة والرحمة . ثم يشعر قلب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالأنس والقربى . فربه يراه فى قيامه وحده للصلاة ، ويراه فى صفوف الجماعة الساجدة . يراه فى وحدته و يراه فى جماعة المصلين يتعهدهم وينظمهم ويؤمهم وينتقل بينهم . يرى حركاته وسكناته ، ويسمع خطراته ودعواته : « إنه هو السميع العليم » ..

وفى التعبير على هذا النحو إيناس بالرعاية والقرب والملاحظة والعناية . وهكذا كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يشعر أنه فى كنف ربه ، وفى جواره وقربه . وفى جو هذا الأنس العلوى كان يعيش . .

* * *

والجولة الأخيرة فى السورة حول القرآن أيضا . ففى المرة الأولى أكد أنه تنزيل من رب العالمين . نزل به الروح الأمين . وفى المرة الثانية نفى أن تتنزل به الشياطين . أما فى هذه المرة فيقرر أن الشياطين لا تتنزل على مثل محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أمانته وصدقه وصلاح منهجه ، إنما تتنزل على كل كذاب آثم ضال من الكهان الذين يتلقون إيحاءات الشياطين ويذيعونها مع التضخيم والتهويل :

« هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » ..

وكان فى العرب كهان يزعمون أن الجن تنقل إليهم الأخبار ، وكان الناس يلجأون إليهم ويركنون إلى نبوءاتهم . وأكثرهم كاذبون . والتصديق بهم جرى وراء الأوهام والأكاذيب . وهم على أية حال لا يدعون إلى هدى ، ولا يأمرون بتقوى ، ولا يقودون إلى إيمان . وما هكذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يدعو الناس بهذا القرآن إلى منهج قويم .

ولقد كانوا يقولون عن القرآن أحيانا : إنه شعر ، ويقولون عن النبى — صلى الله عليه وسلم — إنه شاعر . وهم فى حيرتهم كيف يواجهون هذا القول الذى لا يعرفون له نظيرا ، والذى يدخل إلى قلوب الناس ، ويهز مشاعرهم ، ويغلبهم على إرادتهم من حيث لا يملكون له ردا .

فجاء القرآن يبين لهم فى هذه السورة أن منهج محمد — صلى الله عليه وسلم — ومنهج القرآن غير منهج الشعراء ومنهج الشعر أصلا . فإن هذا القرآن يستقيم على نهج واضح ، ويدعو إلى غاية محددة ، ويسير فى طريق مستقيم إلى هذه الغاية . والرسول — صلى الله عليه وسلم — لا يقول اليوم قولا ينقضه غدا ، ولا يتبع أهواء وانفعالات متقلبة ؛ إنما يصر على دعوة ، ويثبت على عقيدة ، ويدأب على منهج لا عوج فيه . والشعراء ليسوا كذلك . الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة . تتحكم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت . ويرون الأمر الواحد فى لحظة أسود . وفى لحظة أبيض . يرضون فيقولون قولا ، ويسخطون فيقولون قولا آخر . ثم هم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال !

هذا إلى أنهم يخلقون عوالم من الوهم يعيشون فيها ، ويتخيلون أفعالا ونتائج ثم يخالونها حقيقة واقعة يتأثرون بها . فيقل اهتمامهم بواقع الأشياء ، لأنهم يخلقون هم فى خيالهم واقعا آخر يعيشون عليه !

وليس كذلك صاحب الدعوة المحددة ، الذى يريد تحقيقها فى عالم الواقع ودنيا الناس . فلصاحب الدعوة هدف ، وله منهج ، وله طريق . وهو يمضى فى طريقه على منهجه إلى هدفه مفتوح العين ، مفتوح القلب ، يقظ العقل ؛ لا يرضى بالوهم ، ولا يعيش بالرؤى ، ولا يقنع بالأحلام ، حتى تصبح واقعا فى عالم الناس .

فمنهج الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومنهج الشعراء مختلفان ، ولا شبهة هناك ، فالأمر واضح صريح :

« والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون؟! ».
فهم يتبعون المزاج والهوى ومن ثم يتبعهم الغاوون الهائمون مع الهوى ، الذين لا منهج لهم ولا هدف .

وهم يهيمون فى كل واد من وديان الشعور والتصور والقول ، وفق الانفعال الذى يسيطر عليهم فى لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات .

وهم يقولون مالا يفعلون . لأنهم يعيشون فى عوالم من صنع خيالهم ومشاعرهم ، يؤثرونها على واقع الحياة الذى لا يعجبهم ! ومن ثم يقولون أشياء كثيرة ولا يفعلونها ، لأنهم عاشوها فى تلك العوالم الموهومة ، وليس لها واقع ولا حقيقة فى دنيا الناس المنظورة !

إن طبيعة الإسلام ـ وهو منهج حياة كامل معد للتنفيذ فى واقع الحياة ، وهو حركة ضخمة فى الضمائر المكنونة وفى أوضاع الحياة الظاهرة ـ إن طبيعة الإسلام هذه لا تلائمها طبيعة الشعراء كما عرفتهم البشرية ـ فى الغالب ـ لأن الشاعر يخلق حلما فى حسه ويقنع به . فأما الإسلام فيريد تحقيق الحلم ويعمل على تحقيقه ، ويحول المشاعر كلها لتحقق فى عالم الواقع ذلك النموذج الرفيع.
والإسلام يحب للناس أن يواجهوا حقائق الواقع ولا يهربوا منها إلى الخيال المهوّم . فإذا كانت هذه الحقائق لا تعجبهم ، ولا تتفق مع منهجه الذى يأخذهم به ، دفعهم إلى تغييرها ، وتحقيق المنهج الذى يريد .

ومن ثم لا تبقى فى الطاقة البشرية بقية للأحلام المهوّمة الطائرة . فالإسلام يستغرق هذه الطاقة فى تحقيق الأحلام الرفيعة ، وفق منهجه الضخم العظيم .

ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته ـ كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ . إنما يحارب المنهج الذى سار عليه الشعر والفن . منهج الأهواء والانفعالات التى لا ضابط لها ؛ ومنهج الأحلام المهومة التى تشغل أصحابها عن تحقيقها . فأما حين تستقر الروح على منهج الإسلام ، وتنضح بتأثراتها الإسلامية شعرا وفنا ؛ وتعمل فى الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة فى دنيا الواقع ؛ ولا تكتفى بخلق عوالم وهمية تعيش فيها ، وتدع واقع الحياة كما هو مشوها متخلفا قبيحا !

وأما حين يكون للروح منهج ثابت يهدف إلى غاية إسلامية، وحين تنظر إلى الدنيا فتراها من زاوية الإسلام ، فى ضوء الإسلام ، ثم تعبر عن هذا كله شعرا وفنا .

فأما عند ذلك فالإسلام لا يكره الشعر ولا يحارب الفن ، كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ .
ولقد وجه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون ، وإلى خفايا النفس البشرية .
وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن . وفي القرآن وقفات أمام بدائع الخلق والنفس لم يبلغ إليها شعر قط في الشفافية والنفاذ والاحتفال بتلك البدائع وذلك الجمال .
ومن ثم يستثني القرآن الكريم من ذلك الوصف العام للشعراء :

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا » . .

فهؤلاء ليسوا داخلين في ذلك الوصف العام . هؤلاء آمنوا فامتلأت قلوبهم بعقيدة ، واستقامت حياتهم على منهج . وعملوا الصالحات فاتجهت طاقاتهم إلى العمل الخير الجميل ، ولم يكتفوا بالتصورات والأحلام . وانتصروا من بعد ما ظلموا فكان لهم كفاح ينفثون فيه طاقتهم ليصلوا إلى نصرة الحق الذي اعتنقوه .

ومن هؤلاء الشعراء الذين نافحوا عن العقيدة وصاحبها في إبان المعركة مع الشرك والمشركين على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حسان ابن ثابت ، وكعب ابن مالك وعبد الله ابن رواحة — رضي الله عنهم — من شعراء الأنصار ، ومنهم عبد الله ابن الزبعرى ، وأبو سفيان ابن الحارث ابن عبد المطلب وقد كانا يهجوان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في جاهليتهما ، فلما أسلما حسن إسلامهما ومدحا رسول الله ونافحا عن الإسلام .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال لحسان : « اهجهم — أو قال هاجهم — وجبريل معك » . . وعن عبد الرحمان ابن كعب عن أبيه أنه قال للنبي — صلى الله عليه وسلم — إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل » (رواه الإمام أحمد) .

والصور التي يتحقق بها الشعر الإسلامي والفن الإسلامي كثيرة غير هذه الصورة التي وجدت وفق مقتضياتها . وحسب الشعر أو الفن أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها ، ليكون شعراً أو فناً يرضاه الإسلام .

وليس من الضروري أن يكون دفاعا ولا دفعا ؛ ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام

ولا تمجيدا له أو لأيام الإسلام ورجاله . . ليس من الضرورى أن يكون فى هذه الموضوعات ليكون شعرا إسلاميا . وإن نظرة إلى سريان الليل وتنفس الصبح ، ممزوجة بشعور المسلم الذى يربط هذه المشاهد بالله فى حسه لهى الشعر الإسلامى فى صميمه . وإن لحظة إشراق واتصال بالله ، أو بهذا الوجود الذى أبدعه الله ، لكفيلة أن تنشىء شعرا يرضاه الإسلام .

ومفرق الطريق أن للإسلام تصورا خاصا للحياة كلها ، وللعلاقات والروابط فيها . فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذى يرضاه الإسلام .

* * *

وتختم السورة بهذا التهديد الخفى المجمل :

« وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . .

السورة التى اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم ، واستهتارهم بالوعيد واستعجالهم بالعذاب . كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسالات والقرون .

تنتهى بهذا التهديد المخيف . الذى يلخص موضوع السورة . وكأنه الإيقاع الأخير المرهوب ؛ يتمثل فى صور شتى ، يتمثلها الخيال ويتوقعها . وتزلزل كيان الظالمين زلزالا شديدا .



سورة النمل مكية

وآياتها ٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« طس * تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » . .

هذه السورة مكية نزلت بعد الشعراء ؛ وهى تمضى على نسقها فى الأداء : مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذى تعالجه ؛ وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع ، ويؤكده ، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين فى مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم ، للعبرة والتدبر فى سنن الله وسنن الدعوات .

وموضوع السورة الرئيسى ـ كسائر السور المكية ـ هو العقيدة : الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب . والإيمان بالوحى وأن الغيب كله لله ، لا يعلمه سواه . والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم ؛ وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر . والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله .

ويأتى القصص لتثبيت هذه المعانى ؛ وتصوير عاقبة المكذبين بها ، وعاقبة المؤمنين .

تأتى حلقة من قصة موسى ـ عليه السلام ـ تلى مقدمة السورة . حلقة رؤيته للنار وذهابه إليها ، ونداثه من الملأ الأعلى ، وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه . ثم يعجل السياق بخبر

تـكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التـكذيب مع اليقين . . « فجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » . وكذلك شأن المشركين فى مكة كان مع آيات القرآن المبين .

وتليها إشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ثم قصة سليمان مع النملة ، ومع الهدهد ، ومع ملـكة سبأ وقومها . وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة . وهى نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان . وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التى يدعو إليها كل رسول . ويبرز بصفة خاصة استقبال ملـكة سبأ وقومها لـكتاب سليمان ـ وهو عبد من عباد الله ـ واستقبال قريش لـكتاب الله . هؤلاء يـكذبون ويجحدون . وأولئك يؤمنون ويسلمون . والله هو الذى وهب سليمان ما وهب ، وسخر له ما سخر . وهو الذى يملك كل شىء . وهو الذى يعلم كل شىء . وما ملك سليمان وما علمه إلا قطرة من ذلك الفيض الذى لا يغيض .

وتليها قصة صالح مع قومه ثمود . ويبرز فيها تآمر المفسدين منهم عليه وعلى أهله ، وتبييتهم قتله ؛ ثم مكر الله بالقوم ، ونجاة صالح والمؤمنين معه ، وتدمير ثمود مع المتآمرين : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » . . وقد كانت قريش تتآمر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتبيت له ، كما بيتت ثمود لصالح وللمؤمنين .

ويختم القصص بقصة لوط مع قومه . وهمهم بإخراجه من قريتهم هو والمؤمنون معه ، بحجة أنهم أناس يتطهرون ا وما كان من عاقبتهم بعد إذ هاجر لوط من بينهم ، وتركهم للدمار : « وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » . . ولقد همت قريش بإخراج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتآمرت فى ذلك قبل هجرته من بين ظهرانيهم بقليل .

فإذا انتهى القصص بدأ التعقيب بقوله : « قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أم ما يشركون ؟ » . . ثم أخذ يطوف معهم فى مشاهد الـكون ، وفى أغوار النفس . يريهم يد الصانع المدبر الخالق الرازق ، الذى يعلم الغيب وحده ، وهم إليـه راجعون . ثم عرض عليهم أحد أشراط الساعة وبعض مشاهد القيامة ، وما ينتظر المـكذبين بالساعة فى ذلك اليوم العظيم .

ويختم السورة بإيقاع يناسب موضوعها وجوها : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة

الذى حرمها وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين . وقل : الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها ، وماربك بغافل عما تعملون » . .

***

والتركيز فى هذه السورة على العلم . علم الله المطلق بالظاهر والباطن ، وعلمه بالغيب خاصة . وآياته الكونية التى يكشفها للناس . والعلم الذى وهبه لداود وسليمان . وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم . . ومن ثم يجىء فى مقدمة السورة : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » . ويجىء فى التعقيب « قل : لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادارك علمهم فى الآخرة» .. « وإن ربك ليعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » ويجىء فى الختام : «سيريكم آياته فتعرفونها» . . ويجىء فى قصة سليمان :« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .. وفى قول سليمان : « ياأيها الناس علمنا منطق الطير » . . وفى قول الهدهد : « ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ».وعند مايريد سليمان استحضار عرش الملكة ، لايقدر على إحضاره فى غمضة عين عفريت من الجن ، إنما يقدر على هذه : « الذى عنده علم من الكتاب » .

وهكذا تبرز صفة العلم فى جو السورة تظللها بشتى الظلال فى سياقها كله من المطلع إلى الختام . ويمضى سياق السورة كله فى هذا الظل ، حسب تتابعه الذى أسلفنا . فنأخذ فى استعراضها تفصيلا .

* * *

« طا . سين » . . الأحرف المقطعة للتنبيه على المادة الأولية التى تتألف منها السورة والقرآن كله . وهى متاحة لجميع الناطقين بالعربية . وهم يعجزون أن يؤلفوا منها كتابا كهذا القرآن ، بعد التحدى والإفحام . .

ويلى ذلك التنبيه ذكر القرآن :

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين » . .

والكتاب هو نفسه القرآن . وذكره بهذه الصفة هنا يبدو لنا أنه للموازنة الخفية بين استقبال المشركين للكتاب المنزل عليهم من عند الله ؛ واستقبال ملكة سبأ وقومها للكتاب الذى أرسله إليهم سليمان . وهو عبد من عباد الله .

ثم يصف القرآن أو يصف الكتاب بأنه :

« هدى وبشرى للمؤمنين » . .

وهذه أبلغ مما لو قيل : فيه هدى وبشرى للمؤمنين . فالتعبير القرآنى على هذا النحو يجعل مادة القرآن وماهيته هدى وبشرى للمؤمنين . والقرآن يمنح المؤمنين هدى فى كل فج ، وهدى فى كل طريق . كما يطلع عليهم بالبشرى فى الحياتين الأولى والآخرة .

وفى تخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى تكمن حقيقة ضخمة عميقة . . إن القرآن ليس كتاب علم نظرى أو تطبيقى ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعب ما فيه . إنما القرآن كتاب يخاطب القلب ، أول مايخاطب ؛ ويسكب نوره وعطره فى القلب المفتوح ، الذى يتلقاه بالإيمان واليقين . وكلما كان القلب نديا بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن ؛ وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف ؛ واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدى إليه الجاحد الصادف . وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارىء المطموس !

وإن الإنسان ليقرأ الآية أو السورة مرات كثيرة ، وهو غافل أو عجول ، فلا تنض له بشىء ؛ وفجأة يشرق النور فى قلبه ، فتتفتح له عن عوالم ما كانت تخطر له ببال . وتصنع فى حياته صنع المعجزة فى تحويلها من منهج إلى منهج ، ومن طريق إلى طريق .

وكل النظم والشرائع والآداب التى يتضمنها هذا القرآن ، إنما تقوم قبل كل شىء على الإيمان . فالذى لا يؤمن قلبه بالله ، ولا يتلقى هذا القرآن على أنه وحى من عند الله وعلى أن ما جاء فيه إنما هو المنهج الذى يريده الله . الذى لا يؤمن هذا الإيمان لا يهتدى بالقرآن كما ينبغى ولا يستبشر بما فيه من بشارات .

إن فى القرآن كنوزا ضخمة من الهدى والمعرفة والحركة والتوجيه . والإيمان هو مفتاح هذه الكنوز . ولن تفتح كنوز القرآن إلا بمفتاح الإيمان . والذين آمنوا حق الإيمان حققوا الخوارق بهذا القرآن . فأما حين أصبح القرآن كتابا يترنم المترنمون بآياته ، فتصل إلى الآذان ، ولا تتعداها إلى القلوب . فإنه لم يصنع شيئا ، ولم ينتفع به أحد . . لقد ظل كنزا بلا مفتاح !

والسورة تعرض صفة المؤمنين الذين يجدون القرآن هدى وبشرى . . إنهم هم :

« الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون » . .

يقيمون الصلاة . . فيؤدونها حق أدائها ، يقظة قلوبهم لموقفهم بين يدى الله ، شاعرة أرواحهم بأنهم فى حضرة ذى الجلال والإكرام ، مرتفعة مشاعرهم إلى ذلك الأفق الوضىء ، مشغولة خواطرهم بنجاء الله ودعائه والتوجه إليه فى محضره العظيم .

ويؤتون الزكاة . . فيطهرون نفوسهم من رذيلة الشح ؛ ويستعلون بأرواحهم على فتنة المال ؛ ويصلون إخوانهم فى الله ببعض ما رزقهم الله ؛ ويقومون بحق الجماعة المسلمة التى هم فيها أعضاء .

وهم بالآخرة هم يوقنون .. فإذا حساب الآخرة يشغل بالهم ، ويصدهم عن جموح الشهوات، ويغمر أرواحهم بتقوى الله وخشيته والحياء من الوقوف بين يديه موقف العصاة .

هؤلاء المؤمنون الذاكرون الله ، القائمون بتكاليفه ، المشفقون من حسابه وعقابه ، الطامعون فى رضائه وثوابه . . هؤلاء هم الذين تتفتح قلوبهم للقرآن ، فإذا هو هدى وبشرى . وإذا هو نور فى أرواحهم ، ودفعة فى دمائهم ، وحركة فى حياتهم . وإذا هو زادهم الذى به يبلغون ؛ وريهم الذى به يشتفون .

وعند ذكر الآخرة يركز عليها ويؤكد فى صورة التهديد والوعيد لمن لا يؤمنون بها ، فيسدرون فى غيهم ، حتى يلاقوا مصيرهم الوخيم :

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون . أولئك الذين لهم سوء العذاب ، وهم فى الآخرة هم الأخسرون » .

والإيمان بالآخرة هو الزمام الذى يكبح الشهوات والنزوات ، ويضمن القصد والاعتدال فى الحياة. والذى لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة ، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هى فرصة الحياة على هذا الكوكب ، وهى قصيرة مهما طالت . وماتكاد تتسع لشىء من مطالب النفوس وأمانيها التى لا تنال ! ثم ما الذى يمسكه حين يملك إرضاء شهواته ونزواته ، وتحقيق لذاته ورغباته ؛ وهو لا يحسب حساب وقفة بين يدى الله ؛ ولا يتوقع ثوابا ولا عقابا يوم يقوم الأشهاد ؟

ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مزينا للنفس التى لا تؤمن بالآخرة ، تندفع إليه

بلا معوق من تقوى أو حياء . والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذ لها ، وأن تجده حسنا جميلا ؛ مالم تهتد بآيات الله ورسالاته إلى الإيمان بعالم آخر باق بعد هذا العالم الفانى . فإذا هى تجد لذتها فى أعمال أخرى وأشواق أخرى ، تصغر إلى جوارها لذائذ البطون والأجسام !

والله ـ سبحانه ـ هو الذى خلق النفس البشرية على هذا النحو ؛ وجعلها مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى ، مستعدة للعماء إن طمست منافذ الإدراك فيها . ومشيئته نافذة ـ وفق سنته التى خلق النفس البشرية عليها ـ فى حالتى الاهتداء والعماء . ومن ثم يقول القرآن عن الذين لا يؤمنون بالآخرة : « زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » .. فهم لم يؤمنوا بالآخرة فنفذت سنة الله فى أن تصبح أعمالهم وشهواتهم مزينة لهم حسنة عندهم . . وهذا هو معنى التزيين فى هذا المقـام . فهم يعمهون لا يرون ما فيها من شر وسوء . أو فهم حائرون لا يهتدون فيها إلى صواب .

والعاقبة معروفة لمن يزين له الشر والسوء : « أولئك الذين لهم سوء العذاب . وهم فى الآخرة هم الأخسرون » . . سواء كان سوء العذاب لهم فى الدنيا أو فى الآخرة ، فالخسارة المطلقة فى الآخرة ، محققة جزاء وفاقا على الاندفاع فى سوء الأعمال .

وتنتهى مقدمة السورة بإثبات المصدر الإلهى الذى يتنزل منه هذا القرآن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ..

ولفظ «تلقى» يلقى ظل الهدية المباشرة السنية من لدن حكيم عليم . يصنع كل شىء بحكمة ، ويدبر كل أمر بعلم . . وتتجلى حكمته وعلمه فى هـذا القرآن . فى منهجه ، وتكاليفه ، وتوجيهاته ، وطريقته . وفى تنزيله فى إبانه . وفى توالى أجزائه . وتناسق موضوعاته .

ثم يأخذ فى القصص . وهو معرض لحـكمة الله وعلمه وتدبيره الخفى اللطيف .

« إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ : إِنِّي آنَسْتُ نَارًا . سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ،

وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَامُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ . فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ . يَامُوسَىٰ لَا تَخَفْ . إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا : هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » . .

تعرض هذه الحلقة السريعة من قصة موسى ـ عليه السلام ـ بعد قوله تعالى في هذه السورة: « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » .. وكأنما ليقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك لست بدعا في هذا التلقي . فها هو ذا موسى يتلقى التكليف ، وينادى ليحمل الرسالة إلى فرعون وقومه . وليس ما تلقاه من قومك بدعا في التكذيب . فها هم أولاء قوم موسى تستيقن نفوسهم بآيات الله ، ولكنهم يجحدون بها ظلما وعلوا . « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ولينتظر قومك عاقبة الجاحدين المكابرين !

* * *

« إذ قال موسى لأهله : إني آنست نارا . سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » .

وقد ذكر هذا الموقف في سورة طه . وهو في طريق عودته من أرض مدين إلى مصر ، ومعه زوجه بنت شعيب عليه السلام [1] . وقد ضل طريقه في ليلة مظلمة باردة . يدل على هذا

(١) ليس هناك نص مقطوع به على أن شعيبا كان هو الشيخ الكبير الذي خدمه موسى وتزوج إحدى ابنتيه . ولكن هذا هو الأرجح نظرا لورود قصة موسى بعد قصة شعيب في كل سرد تاريخي للقصتين في القرآن . مما يوحي بأنهما كانا متعاصرين أو متواليين .

قوله لأهله : سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . وكان ذلك إلى جانب الطور . وكانت النيران توقد فى البرية فوق المرتفعات لهداية السالكين بالليل ؛ فإذا جاءوها وجدوا القرى والدفء ، أو وجدوا الدليل على الطريق .

« إنى آنست نارا » فقد رآها على بعد ، فشعر لها بالطمأنينة والأنس . وتوقع أن يجد عندها خبر الطريق ، أو أن يقبس منها مايستدفىء به أهله فى قر الليل فى الصحراء .

ومضى موسى — عليه السلام — إلى النار التى آنسها ، ينشد خبرا ، فإذا هو يتلقى النداء الأسمى :

« فلماجاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها . وسبحان الله رب العالمين . ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » ..

إنه النداء الذى يتجاوب به الكون كله ، وتتصل به العوالم والأفلاك ؛ ويخشع له الوجود كله وترتعش له الضمائر والأرواح . النداء الذى تتصل فيه السماء بالأرض ؛ وتتلقى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير ؛ ويرتفع فيه الإنسان الفانى الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله .

« فلما جاءها نودى » .. بهذا البناء للمجهول — وهو معلوم — ولكنه التوقير والإجلال والتعظيم للمنادى العظيم .

« نودى أن بورك من فى النار ومن حولها » ..

فمن ذا كان فى النار ؟ ومن ذا كان حولها ؟ إنها على الأرجح لم تكن نارا من هذه النار التى نوقدها . إنما كانت نارا مصدرها الملأ الأعلى . نارا أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى . وتراءت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها . ومن ثم كان النداء : « أن بورك من فى النار » إيذانا بفيض من البركة العلوية على من فى النار من الملائكة ومن حولها .. وفيمن حولها موسى .. وسجل الوجود كله هذه المنحة العليا . ومضت هذه البقعة فى سجل الوجود مباركة مقدسة بتجلى ذى الجلال عليها ، وإذنه لها بالبركة الكبرى .

وسجل الوجود كله بقية النداء والنجاء : « وسبحان الله رب العالمين . ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » ..

نزه الله ذاته وأعلن ربوبيته للعالمين ، وكشف لعبده أن الذى يناديه هو الله العزيز الحكيم .

وارتفعت البشرية كلها فى شخص موسى — عليه السلام — إلى ذلك الأفق الوضىء الكريم .
ووجد موسى الخبر عند النار التى آنسها ، ولكنه كان الخبر الهائل العظيم ؛ ووجد القبس الدافىء ، ولكنه كان القبس الذى يهدى إلى الصراط المستقيم .

وكان النداء للاصطفاء ؛ ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة إلى أكبر الطغاة فى الأرض فى ذلك الحين . ومن ثم جعل ربه يعده ويجهزه ويقويه :

« وألق عصاك » .. باختصار هنا ، حيث لا يذكر ذلك النجاء الطويل الذى فى سورة طه . لأن العبرة المطلوبة هى عبرة النداء والتكليف .

« فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب » ..

فقد ألقى عصاه كما أمر ؛ فإذا هى تدب وتسعى ، وتتحرك حركة سريعة كحركة ذلك النوع الصغير السريع من الحيات « الجان » . وأدركت موسى — عليه السلام — طبيعته الانفعالية ، وأخذته هزة المفاجأة التى لم تخطر له ببال ، وجرى بعيدا عن الحية دون أن يفكر فى الرجوع ! وهى حركة تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة فى مثل تلك الطبيعة الشديدة الانفعال .

ثم نودى موسى بالنداء العلوى المطمئن ؛ وأعلن له عن طبيعة التكليف الذى سيلقاه :

« ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلين » ..

لا تخف . فأنت مكلف بالرسالة . والرسل لا يخافون فى حضرة ربهم وهم يتلقون التكليف .

« إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء . فإنى غفور رحيم » ..

إنما يخاف الذين ظلموا . ذلك إلا أن يبدلوا حسنا بعد سوء ، ويدعوا الظلم إلى العدل ؛ ويدعوا الشرك إلى الإيمان ، ويدعوا الشر إلى الخير . فإن رحمتى واسعة وغفرانى عظيم .

والآن وقد اطمأن موسى وقر ، يجهزه ربه بالمعجزة الثانية ، قبل أن يكشف له عن جهة الرسالة ووجهة التكليف :

« وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » ..

وكان هذا . وأدخل موسى يده فى فتحة ثوبه — وهى جيبه — فخرجت بيضاء مشرقة لا عن مرض ، ولكن عن معجزة . ووعده ربه أن يؤيده بتسع آيات من هذا النوع الذى شاهد منه اثنتين ؛ وكشف له حينئذ عن وجهته التى من أجلها دعاه وجهزه ورعاه !

« فى تسع آيات إلى فرعون وقومه . إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

ولم يعدد هنا بقية هذه الآيات التسع ، التى كشف عنها فى سورة الأعراف . وهى سنون الجدب ، ونقص الثمرات، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع، والدم. لأن التركيز هنا على قوة الآيات لا على ماهيتها . وعلى وضوحها وجحود القوم لها :

« فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا : هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ..

هذه الآيات الكثيرة العدد ، الكاشفة عن الحق ، حتى ليبصره كل من له عينان . ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة ، فهى تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى . ومع هذا فقد قالوا عنها : إنها سحر مبين ! قالوا ذلك لا عن اقتناع به ، ولا عن شبهة فيه . إنما قالوه « ظلما وعلوا » وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذى لا شبهة فيه : « واستيقنتها أنفسهم » . قالوا جحودا ومكابرة ، لأنهم لا يريدون الإيمان ، ولا يطلبون البرهان . استعلاء على الحق وظلما له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء الذميم .

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن ، ويستيقنون أنه الحق ، ولكنهم يجحدونه ، ويجحدون دعوة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إياهم إلى الله الواحد . ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم ، لما وراءها من أوضاع تسندهم ، ومغانم تتوافد عليهم . وهى تقوم على تلك العقائد الباطلة ، التى يحسون خطر الدعوة الإسلامية عليها ، ويحسونها تتزلزل تحت أقدامهم ، وترتج فى ضمائرهم . ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهى المريب !

وكذلك الحق لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه . بل لأنهم يعرفونه ! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم ، لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم ، أو الخطر على أوضاعهم ، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم . فيقفون فى وجهه مكابرين ، وهو واضح مبين .

« فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ..

وعاقبة فرعون وقومه معروفة ، كشف عنها القرآن فى مواضع أخرى . إنما يشير إليها هنا هذه الإشارة ، لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه ، إلى عاقبة فرعون وقومه قبل أن يأخذهم ما أخذ المفسدين .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ .

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ : يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ، لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ .

« وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ، أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ .

« فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَالَ: أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ : سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ، فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ .

« قَالَتْ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ، مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا : نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً

أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون* وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون .

« فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ! فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون .

« قال : يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإني عليه لقوي أمين* قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم * قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ؟

« فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين .

« وصدها ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين .

« قيل لها : ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها . قال : إنه صرح ممرد من قوارير . قالت : رب إني ظلمت نفسي ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

ترد هذه الإشارة إلى داود ، وهذه القصة عن سليمان بعد تلك الحلقة من قصة موسى ــ عليهم السلام ــ وهم من أنبياء بني إسرائيل ، في السورة التي تبدأ بالحديث عن القرآن ؛

ويجىء فيها : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » .

وقصة سليمان — عليه السلام — فى هذه السورة مبسوطة بتوسع أكثر منها فى أية سورة أخرى . وإن كانت تختص بحلقة واحدة من حلقات حياته . حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ . يمهد لها السياق بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطق الطير وإعطائه من كل شىء . وشكره لله على فضله المبين . ثم مشهد موكبه من الجن والإنس والطير ، وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب ، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله ، وإدراكه أن النعمة ابتلاء ، وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح فى هذا الابتلاء .

ومناسبة ورود هذا القصص إجمالا فى هذه السورة ماسبق بيانه من افتتاح السورة بحديث عن القرآن ، وتقرير أن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وقصص موسى وداود وسليمان من أهم الحلقات فى تاريخ بنى إسرائيل .

أما مناسبة هذه الحلقة ومقدماتها لموضوع هذه السورة فتبدو فى عدة مواضع منها ومن السورة :

التركيز فى جو السورة وظلالها على العلم — كما أسلفنا فى أوائلها — والإشارة الأولى فى قصة داود وسليمان هى : « ولقد آتينا داود وسليمان علما » وإعلان سليمان لنعمة الله عليه يبدأ بالإشارة إلى تعليمه منطق الطير : « وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير » . وعذر الهدهد عن غيبته فى ثنايا القصة يبدأ بقوله : « أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » . والذى عنده « علم » من الكتاب هو الذى يأتى بعرش الملكة فى غمضة عين . . .

وافتتاح السورة عن القرآن كتاب الله المبين إلى المشركين . وهم يتلقونه بالتكذيب . وفى القصة كتاب سليمان تتلقاه ملكة سبأ ، فما تلبث طويلا حتى تأتى هى وقومها مسلمين . لما رأته من القوى المسخرة لسليمان من الجن والإنس والطير . والله هو الذى سخر لسليمان ماسخر ، وهو القاهر فوق عباده . وهو رب العرش العظيم .

وفى السورة استعراض لنعم الله على العباد ، وآياته فى الكون ، واستخلافه للناس وهم يجحدون بآيات الله ، ولا يشكرونه . وفى القصة نموذج للعبد الشاكر ، الذى يسأل ربه أن يوفقه إلى شكر نعمته عليه ؛ المتدبر لآيات الله الذى لايغفل عنها ، ولاتبطره النعمة ، ولاتطغيه القوة . . فالمناسبات كثيرة وواضحة بين موضوع السورة وإشارات القصة ومواقفها .

وقصة سليمان مع ملكة سبأ نموذج واف للقصة فى القرآن ، ولطريقة الأداء الفنى كذلك . فهى قصة حافلة بالحركة ، وبالمشاعر ، وبالمشاهد ، وبتقطيع هذه المشاهد ووضع الفجوات الفنية بينها !

فلنأخذ فى عرضها بالتفصيل :

* * *

« ولقد آتينا داود وسليمان علما . وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

هذه هى إشارة البدء فى القصة . وإعلان الافتتاح . . خبر تقريرى عن أبرز النعم التى أنعم الله بها على داود وسليمان — عليهما السلام — نعمة العلم . فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم فى سور أخرى . منها تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور ، ترتيلا يتجاوب به الكون من حوله ، فتؤوب الجبال معه والطير ، لحلاوة صوته ، وحرارة نبراته ، واستغراقه فى مناجاة ربه ، وتجرده من العوائق والحواجز التى تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود . ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب ، وتطويع الحديد له ، ليصوغ منه من هذا ما يشاء . ومنها تعليمه القضاء بين الناس ، مما شاركه فيه سليمان .

وأما سليمان ففى هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير وما إليه ؛ بالإضافة إلى ما ذكر فى سور أخرى من تعليمه القضاء ، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله .

تبدأ القصة بتلك الإشارة : « ولقد آتينا داود وسليمان علما » وقبل أن تنتهى الآية يجىء شكر داود وسليمان على هذه النعمة ، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم ، والحمد الله الذى فضلهما بها على كثير من عباده المؤمنين . فتبرز قيمة العلم ، وعظمة المنة به من الله على العباد ، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين .

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار . والإيحاء بأن العلم كله هبة من الله ، وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره ، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه ، وأن ينفقه فيما يرضى الله الذى أنعم به وأعطاه . فلا يكون العلم مبعداً لصاحبه عن الله ، ولا منسيا له إياه . وهو بعض مننه وعطاياه !

والعلم الذى يبعد القلب عن ربه علم فاسد ، زائغ عن مصدره وعن هدفه . لا يثمر سعادة

لصاحبه ولا للناس ، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار ، لأنه انقطع عن مصدره ، وانحرف عن وجهته ، وضل طريقه إلى الله ...

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم ، بتحطيم الذرة واستخدامها. ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذى لا يذكر أصحابه الله ، ولا يخشونه ، ولا يحمدون له ، ولا يتوجهون بعلمهم إليه ؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية فى قنبلتى « هيروشيما » . و « ناجازاكى » وغير الخوف والقلق الذى يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم والدمار والفناء (١) ؟

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان ، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث :

« وورث سليمان داود . وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء . إن هذا لهو الفضل المبين » . .

وداود أوتى الملك مع النبوة والعلم . ولكن الملك لا يذكر فى صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان . إنما يذكر العلم . لأن الملك أصغر من أن يذكر فى هذا المجال !

« وورث سليمان داود » والمفهوم أنها وراثة العلم ، لأنه هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر . ويؤكد هذا إعلان سليمان فى الناس : « قال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من

---

(١) قال البروفسور « م . ى . أولى فنيت » الأستاذ بجامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية . بعد حادثى هيروشيما وناجازاكى :

« وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار . وستليها قنابل قوتها مليون طن ، ولا ينفع فى التوقى منها دفاع أو احتياط . وإن ست قنابل من هذا القبيل تكفى لتدمير انجلترا على بكرة أبيها » .

وقد صحت نبوءته وأنتجت القنابل الهيدروجينية التى تعد قنبلتا هيروشيما وناجازاكى بالقياس إليها لعبة أطفال !

وبهذه المناسبة نذكر أن قنبلة هيروشيما قد قتلت لفورها من اليابانيين من يتراوح عددهم بين عشرة ومائتى ألف وأربعين ومئتى ألف . وذلك غير المشوهين والمحروقين الذين ماتوا بعد ذلك . وهم يعدون بعشرات الألوف ! ! !

كل شىء » . . فيظهر ماعلمه من منطق الطير ويجمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذى علمه منطق الطير . وليس هو داود . فهو لم يرث هذا عن أبيه . وكذلك ما أوتيه من كل شىء إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم .

« يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء » . . يذيعها سليمان ـ عليه السلام ـ فى الناس تحدثا بنعمة الله ، وإظهارا لفضله ، لامباهاة ولا تنفجا على الناس . ويعقب عليها « إن هذا لهو الفضل المبين » فضل الله الكاشف عن مصدره ، الدال على صاحبه . فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله . وكذلك لايؤتى أحدا من كل شىء ـ بهذا التعميم ـ إلا الله .

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم ـ هى لغاتها ومنطقها ـ فيما بينها . والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ولا تكون أمما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها ، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها . وذلك ملحوظ فى حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات . ويجتهد علماء هذه الأنواع فى إدراك شىء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان ـ عليه السلام ـ فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التى تخالف مألوف البشر . لاعلى طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره فى التفاهم ، على طريق الظن والحدس ، كما هو حال العلماء اليوم . . .

أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان ـ عليه السلام ـ فى هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة . وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشرى القليل ! وإنه لأيسر شىء وأهون شىء على الله ، أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ، هبة لدنية منه ، بلا محاولة ولااجتهاد . وإن هى إلا إزاحة لحواجز النوع التى أقامها الله بين الأنواع . وهو خالق هذه الأنواع !

على أن هذا كله لم يكن إلا شقا واحدا للخارقة التى أتاحها الله لعبده سليمان . أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته ، وطوع أمره ، كجنوده من

الإنس سواء بسواء . والطائفة التى سخرها له من الطير وهبها إدرا كا خاصا أعلى من إدراك نظائرها فى أمة الطير .

يبدو ذلك فى قصة الهدهد الذى أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم . وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز ..

حقيقة إن سنة الله فى الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه ، ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان ؛ و إن خلقة الطير على هذا النحو حلقة فى سلسلة التناسق الكونى العام . وإنها خاضعة ـ كحلقة مفردة ـ للناموس العام ، الذى يقتضى وجودها على النحو الذى وجدت به .

وحقيقة إن الهدهد الذى يولد اليوم ، هو نسخة من الهدهد الذى وجد منذ ألوف أو ملايين من السنين ، منذ أن وجدت الهداهد . وإن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول . ومهما بلغ التحوير فيه ، فهو لا يخرج من نوعه ، ليرتقى إلى نوع آخر .. وإن هذا ـ كما يبدو ـ طرف من سنة الله فى الخلق ، ومن الناموس العام المنسق للكون .

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس . وقد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام ، الذى لا نعرف أطرافه . جزءا يظهر فى موعده الذى لا يعلمه إلا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر ، ويكمل ناموس الله فى الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدهد سليمان ، وربما كل الطائفة من الطير التى سخرت له فى ذلك الزمان .

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وإفضال :

« وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » ..

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور . يتألف من الجن والإنس والطير . والإنس معروفون ، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم فى القرآن . وهو أنه خلقهم من مارج من نار . أى من لهيب متموج من النار . وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » (الكلام عن إبليس أو الشيطان

وإبليس من الجن) وأنهم قادرون على الوسوسة فى صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية — ولا ندرى كيف — وأن منهم طائفة آمنت برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يرهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخبارا : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا .. » ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويغوصون له فى البحر ، ويأتمرون بأمره بإذن الله . ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا فى موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير .

ونقول : إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس . وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جندا لسليمان — إذ أن ملكه لم يتجاوز مايعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات — فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له ، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ونستند فى مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن .. «إن إبليس كان من الجن » .. وقال فى سورة «الناس » : « الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس» وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر فى عهد سليمان . وماكانوا ليزاولوا هـذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره . وهو نبى يدعو إلى الهدى . فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هى التى كانت مسخرة له .

ونستند فى مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد . ولو كانت جميع الطيور مسخرة له ، محشورة فى موكبه ، ومنها جميع الهداهد ، مااستطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلا على بلايين الطير . ولما قال : مالى لا أرى الهدهد؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته ، وقد يكون هو الذى سخر لسليمان من أمة الهداهد ، أو يكون صاحب النوبة فى ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه . ويعين على على هـذا ماظهر من أن ذلك الهدهد موهوب إدراكا خاصا ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة . ولا بد أن هـذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التى سخرت لسليمان . لا لجميع الهداهد وجميع الطيور . فإن نوع الإدراك الذى ظهر من ذلك الهدهد الخاص فى مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس !

حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير . وهو موكب عظيم ، وحشد كبير . يجمع أوله على آخره « فهم يوزعون » حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى . فهو حشد عسكرى منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، إشارة إلى الحشد والتنظيم .

« حتى إذا أتوا على وادى النمل . قالت نملة : ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، و وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » ..

لقد سار الموكب . موكب سليمان من الجن والإنس والطير . فى ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتلاءم خطاه . حتى إذا أتوا على واد كثير النمل ، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه « وادى النمل » قالت نملة . لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح فى الوادى — ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ، تتنوع فيها الوظائف ، وتؤدى كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالبا عن اتباع مثله ، على ماأوتوا من عقل راق وإدراك عال — قالت هذه النملة للنمل ، بالوسيلة التى تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها . قالت للنمل : ادخلوا مساكنكم — كى لا يحطمنكم سليمان وجنوده . وهم لا يشعرون بكم .

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ماقالت ، وبمضمون ماقالت. هش لما قالت كما يهش الكبير للصغير الذى يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر أذاه. وانشرح صدره لإدراكه . فهى نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز . وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك ، وأن يفهم عنها النمل فيطيع !

أدرك سليمان هذا « فتبسم ضاحكا من قولها » .. وسرعان ماهزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه إلى ربه الذى أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة ؛ وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه ؛ واتجه إلى ربه فى إنابة يتوسل إليه :

« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » . .

« رب » . . بهذا النداء القريب المباشر المتصل . . « أوزعنى » اجمعنى كلى . اجمع جوارحى ومشاعرى ولسانى وجنانى وخواطرى وخلجاتى ، وكلماتى وعباراتى ، وأعمالى

وتوجهاتى . اجمعنى كلى . اجمع طاقاتى كلها . أولها على آخرها وآخرها على أولها (وهو المدلول اللغوى لـكلمة أوزعنى) لتـكون كلها فى شكر نعمتك علىّ وعلى والدى ..

وهذا التعبير يشى بنعمة الله التى مست قلب سليمان ـ عليه السلام ـ فى تلك اللحظة ويصور نوع تأثره ، وقوة توجهه ، وارتعاشة وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة فى ارتياع وابتهال .

« رب أوزعنى أن أشـكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » . . « وأن أعمل صالحا ترضاه » . . فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذى يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته ، يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه . وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله .

« وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » . .

أدخلنى برحمتك ... فهو يعلم أن الدخول فى عباد الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبـد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك فى عداد الصالحين . يعلم هذا ، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالـكين فى هذا الرعيل . يضرع إلى ربه وهو النبى الذى أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير . غير آمن مكر الله ـ حتى بعد أن اصطفاه . خائفا أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به شكره .. وكذلك تـكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوف إلى رضاه ورحمته فى اللحظة التى تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه .

ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة . خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها . وخارقة إدراك النمـلة أن هذا سليمان وجنوده . فأما الأولى فهى مما علمه الله لسليمان . وسليمان إنسان ونبى ، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية فى مقالة النملة . فقد تدرك النمـلة أن هؤلاء خلق أكبر ؛ وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه . وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة . أما أن تدرك النمـلة أن هذه الشخوص هى سليمان وجنوده ، فتلك هى الخارقة الخاصة التى تخرج على المألوف . وتحسب فى عداد الخوارق فى مثل هذه الحال .

***

والآن نأتى إلى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهى مقطعة إلى ستة مشاهد ، بينها فجوات فنية ، تدرك من المشاهد المعروضة ، وتكمل جمال العرض الفنى فى القصة ، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد تحمل التوجيه الوجدانى المقصود بعرضها فى السورة ؛ وتحقق العبرة التى من أجلها يساق القصص فى القرآن الكريم . وتتناسق التعقيبات مع المشاهد والفجوات تنسيقاً بديعا ، من الناحيتين : الفنية الجمالية ، والدينية الوجدانية .

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير ، كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم ، فإن القصة تحتوى دورا لكل من الجن والإنس والطير . ويبرز فيها دور العلم كذلك . وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية فى القصة . . وهذه سمة فنية دقيقة فى القصص القرآنى .

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة : شخصية سليمان ، وشخصية الملكة ، وشخصية الهدهد ، وشخصية حاشية الملكة . كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات فى شتى مشاهد القصة ومواقفها .

* * *

يبدأ المشهد الأول فى مشهد العرض العسكرى العام لسليمان وجنوده ، بعد ما أتوا على وادى النمل ، وبعد مقالة النملة ، وتوجه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة :

« وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين » . .

فهاهو ذا الملك النبى . سليمان . فى موكبه الفخم الضخم . هاهو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد . ونفهم من هذا أنه هدهد خاص ، معين فى نوبته فى هذا العرض . وليس هدهدا ما من تلك الألوف أو اللايين التى تحويها الأرض من أمة الهداهد . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم . فهو لم يغفل عن غيبة جندى من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير ، الذى يجمع آخره على أوله كى لا يتفرق وينتكث .

وهو يسأل عنه فى صيغة مترفعة مرنة جامعة : « مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ » .

ويتضح أنه غائب ، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن ! وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم ، كي لاتكون فوضى .فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرا. وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند . ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندى الغائب المخالف : « لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه» .. ولكن سليمان ليس ملكا جبارا فى الأرض ،إنما هو نبى . وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغى أن يقضى فى شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره . . ومن ثم تبرز سمة النبى العادل : « أو ليأتينى بسلطان مبين » . أى حجة قوية توضح عذره ، وتنفى المؤاخذة عنه .

ويسدل الستار على هذا المشهد الأول فى القصة(أولعله كان ما يزال قائما) ويحضر الهدهد. ومعه نبأ عظيم ، بل مفاجأة ضخمة لسليمان ، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن !

« فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ،ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ، ويعلم ماتخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » ..

إنه يعرف حزم الملك وشدته . فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته ، وتضمن إصغاء الملك له : « أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين » . . فأى ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له : « أحطت بما لم تحط به » ؟!

فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ فى تفصيل النبأ اليقين الذى جاء به من سبأ ــ ومملكة سبأ تقع فى جنوب الجزيرة باليمن ــ فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة ، « أوتيت من كل شىء » وهى كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع . « ولها عرش عظيم » . أى سرير ملك فخم ضخم ، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة. وذكر أنه وجد الملكة وقومها « يسجدون للشمس من دون الله » وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، فأضلهم ، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير « الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض » . والخبء : المخبوء إجمالا سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض ، أم كان هو أسرار السماوات والأرض . وهى كناية

عن كل مخبوء وراء ستار الغيب فى الكون العريض . « ويعلم ماتخفون وما تعلنون » وهى مقابلة للخبء فى السماوات والأرض بالخبء فى أطواء النفس . ماظهر منه وما بطن .

والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب ، الذى لم يقض الملك فى أمره بعد ؛ فهو يلمح فى ختام النبأ الذى يقصه، إلى الله الملك القهار ، رب الجميع ، صاحب العرش العظيم ، الذى لا تقاس إليه عروش البشر. ذلك كى يطامن الملك من عظمته الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية :

« الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » . .

فيلمس قلب سليمان — فى سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها — بهذه الإشارة الخفية !

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب . صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة فى عرض النبأ ، ويقظة إلى طبيعة موقفه ، وتلميح وإيماء أريب .. فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله . ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم .. وما هكذا تدرك الهداهد . إنما هو هدهد خاص أوتى هذا الإدراك الخاص ، على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف .

ولا يتسرع سليمان فى تصديقه أو تكذيبه ؛ ولا يستخفه النبأ العظيم الذى جاءه به . إنما يأخذ فى تجربته ، للتأكد من صحته . شأن النبى العادل والملك الحازم :

« قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون » .

ولا يعلن فى هذا الموقف فحوى الكتاب ، فيظل ما فيه مغلقا كالكتاب نفسه ، حتى يفتح ويعلن هناك . وتعرض المفاجأة الفنية فى موعدها المناسب !

ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب ، وهى تستشير الملأ من قومها فى هذا الأمر الخطير :

« قالت : يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » . .

فهى تخبرهم أنه ألقى إليها كتاب . ومن هذا نرجح أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب ، ولا كيف ألقاه . ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذى جاء به — كما تقول التفاسير — لأعلنت

هذه العجيبة التي لا تقع كل يوم . ولكنها قالت بصيغة المجهول . مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقي إليها ولا من ألقاه .

وهي تصف الكتاب بأنه « كريم » . وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله . أو من محتوياته التي أعلنت عنها للملأ : « إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتوني مسلمين » . . وهي كانت لا تعبد الله . ولكن صيت سليمان كان ذائعا في هذه الرقعة ، ولغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم . مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته .

وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة . فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم . ومطلوب فيه أمر واحد : ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا ، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه .

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب ؛ ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر إلا بعد هذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم :

« قالت : يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » . .

وفي هذا تبدو سمة الملكة الأريبة ؛ فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أخذت بهذا الكتاب الذي ألقي إليها من حيث لا تعلم ، والذي يبدو فيه الحزم والاستعلاء . وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهي تصف الكتاب بأنه « كريم » وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة ، ولكنها لا تقول هذا صراحة ، إنما تمهد له بذلك الوصف . ثم تطلب الرأي بعد ذلك والمشورة !

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل . ولكنهم فوضوا للملكة الرأي :

« قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » .

وهنا تظهر شخصية « المرأة » من وراء شخصية الملكة . المرأة التي تكره الحروب والتدمير ، والتي تنضى سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضى سلاح القوة والمخاشنة :

« قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » !

فهي تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة

أشاعوا فيها الفساد ، وأباحوا ذمارها ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة الدافعة عنها ، وعلى رأسها رؤساؤها ؛ وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة . وأن هذا هو دأبهم الذى يفعلونه .

والهـدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقد تفلح فى دفع القتال . وهى تجربة . فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدى . وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة ، الذى لا يصرفه عنه مال ، ولا عرض من أعراض هذه الأرض .

ويسدل الستار على المشهد ، ليرفع ، فإذا مشهد رسل الملـكة وهديتهم أمام سليمان . وإذا سليمان ينـكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال ، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام . ويعلن فى قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير .

« فلما جاء سليمان قال : أتمدوننِ بمـال ؟ فما آتانى الله خـير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلةوهم صاغرون » ..

وفى الرد استهزاء بالمال ، واستنكار للاتجاه إليه فى مجال غير مجاله . مجال العقيدة والدعوة : « أتمدوننِ بمال ؟ » أتقدمون لى هـذا العرض التافه الرخيص ؟ « فمـا آتانى الله خير مما آتاكم » لقد آتانى من المال خيرا مما لديكم . ولقد آتانى ما هو خـير من المال على الإطلاق : العلم والنبوة . وتسخير الجن والطـير ، فما عاد شىء من عرض الأرض يفرحنى « بل أنتم بهديتكم تفرحون » . وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التى تعنى أهل الأرض ، الذين لايتصلون بالله ، ولا يتلقون هداياه !

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد : « ارجع إليهم » بالهدية وانتظروا المصير المرهوب : « فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بهـا » جنود لم تسخر للبشر فى أى مكان ، ولا طاقة للملـكة وقومها بهم فى نضال : « ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » مدحورون مهزومون .

ويسدل الستار على هـذا المشهد العنيف وينصرف الرسل ، ويدعهم السياق لايشير إليهم بكلمة كأنما قضى الأمر ، وانتهى الـكلام فى هذا الشأن .

ثم إذا سليمان ــ عليه السلام ــ يدرك أن هذا الرد سينهى الأمر مع ملـكة لاتريد العداء ــ كما يبدو من طريقتها فى مقابلة رسالته القوية بهدية ! ــ ويرجح أنها ستجيب دعوته . أو يؤكد . وقد كان .

ولـكن السياق لايذكر كيف عاد رسلها إليها ، ولا ماذا قالوا لها ، ولا ماذا اعتزمت

بعدها . إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة ، وأن سليمان يعرف هذا ، وأنه يتذاكر مع جنوده في استحضار عرشها ، الذى خلفته في بلادها محروسا مصونا :

« قال : يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . وإنى عليـــه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الـكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » . .

ترى ما الذى قصد إليه سليمان ـ عليه السلام ـ من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تؤيده ، لتؤثر في قلب الملـكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هـــذه . وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى . فاستطول سليمان هـــذه الفترة واستبطأها ـ فيما يبدو ـ فإذا « الذى عنده علم من الـكتاب » يعرض أن يأتى به في غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الـكتاب الذى عنده علم منه . إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله ، موهوب سرا من الله يستمد به من القوة الـكبرى التى لا تقف لها الحواجز والأبعاد . وهو أمر يشاهد أحيانا على أيدى بعض المتصلـين ، ولم يكشف سره ولا تعليله ، لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم المادية . وهذا أقصى ما يقال في الدائرة المأمونة التى لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات !

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله : « عنده علم من الـكتاب » فقال بعضهم : إنه التوراة . وقال بعضهم : إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذاك . وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مستيقن . والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع ، فكم في هذا الـكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها . وكم في النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدى إليها . فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحـــدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التى لا تقع في مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها .

وهذا الذى عنده علم من الـكتاب ، كانت نفسه مهيأة بسبب ماعنده من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الـكونية التى تم بها تلك الخارقة التى تمت على يده ، لأن ماعنده من

علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقى ، ولاستخدام ماوهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه ــ عليه السلام ــ ونحن نرجح أنه غيره . فلو كان هو لأظهره السياق باسمه . ولما أخفاه . والقصة عنه ، ولا داعى لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال : إن اسمه آصف ابن برخيا ولا دليل عليه .

« فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم » .

لقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان ــ عليه السلام ــ وراعه أن يحقق الله له مطالبه على هذا النحو المعجز ؛ واستشعر أن النعمة ــ على هذا النحو ــ ابتلاء ضخم مخيف ؛ يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه ، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه ؛ ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم ، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه . والله غنى عن شكر الشاكرين ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، فينال من الله زيادة النعمة ، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء . ومن كفر فإن الله « غنى » عن الشكر « كريم » يعطى عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء .

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضى سليمان ــ عليه السلام ــ فى تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل :

« قال : نكروا لها عرشها . ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون » .

غيروا معالمه المميزة له ، لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدى إليه بعد هذا التنكير . أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير .

ولعل هذا كان اختبارا من سليمان لذكائها وتصرفها ، فى أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور :

« فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو » . .

إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها فى مملكتها ، وعليها أقفالها وحراسها . . أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ؟ وكيف جىء به ؟ ومن ذا الذى جاء به ؟

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير !

ترى تنفي أنه هو بناء على تلك الملابسات ؟ أم تراها تقول : إنه هو بناء على ماتراه فيه من أمارات ؟ وقد انتهت إلى جواب ذكي أريب : « قالت : كأنه هو » لا تنفي ولا تثبت ، وتدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة في السياق . فكأنما أخبرت بسر المفاجأة . فقالت : إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل . أي منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية .

« وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » .

ثم يتدخل السياق القرآني لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الإيمان بالله وصدها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان ؛ فقد نشأت في قوم كافرين ، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه ، وهي الشمس كما جاء في أول القصة :

« وصدها ما كانت تعبد من دون الله . إنها كانت من قوم كافرين » . .

وكان سليمان ـ عليه السلام ـ قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكشف السياق عنها بعد ، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها ـ وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى[1] :

« قيل لها : ادخلي الصرح . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ! قال : إنه صرح ممرد من قوارير ! قالت : رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » . .

لقد كانت المفاجأة قصراً من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها : ادخلي الصرح ، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة . فكشفت عن ساقيها ؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها : « قال : إنه صرح ممرد من قوارير » !

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره . معلنة إسلامها « مع سليمان » لا لسليمان . ولكن « لله رب العالمين » .

لقد اهتدى قلبها واستنار . فعرفت أن الإسلام لله ليس استسلاما لأحد من خلقه ، ولو

---

(١) يراجع فصل القصة في القرآن في كتاب : التصوير الفني في القرآن فقرة الخصائص الفنية للقصة ، صفحة ١٤٨ ـ ١٧٦ من الطبعة الثالثة .

كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات . إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين . ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة . . « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

وسجل السياق القرآني هذه اللفتة وأبرزها ، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله ، والإسلام له . فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين . بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله . . رب العالمين . . على قدم المساواة .

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياهم إلى الإسلام . وفي نفوسهم الكبر أن ينقادوا إلى محمد ابن عبد الله ، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء . فها هي ذي امرأة في التاريخ تعلمهم أن الإسلام لله يسوى بين الداعي والمدعوين . بين القائد والتابعين . فإنما يسلمون مع رسول الله لله رب العالمين !

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، فَإِذَاهُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ : يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ؟ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا : اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ، قَالَ : طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .

« وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا : تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ : مَاشَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ !

« وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

فى معظم المواضع فى القرآن ترد قصــة صالح وثمود فى سياق قصص عام مع نوح وهود ، ولوط وشعيب . وأحيانا تجىء قصة إبراهيم فى هذا السياق أو لا تجىء . أما فى هذه السورة والتركيز فيها على قصص بنى إسرائيل ، فقد جاءت قصة موسى وقصة داود وسليمان . واختصرت قصة هود وقصة شعيب من السلسلة ولم تجىء قصة إبراهيم .

وفى هذه السورة لاتذكر حلقة الناقة فى قصة صالح ـ عليه السلام ـ إنما يذكر تبييت الرهط التسعة المفسدين لصالح وأهله ، ومكرهم به وهو لا يشعر ، فمكر الله بالمفسدين وهم لايشعرون، ودمرهم وقومهم أجمعين ، وأنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وترك بيوت المفسدين خاوية وجعلها لمن بعدهم آية . والمشركون فى مكة يمرون بهذه البيوت المدمرة الخاوية ولكنهم لا يعتبرون . . .

***

« ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله ، فإذا هم فريقان يختصمون » . .

يلخص رســالة صالح ـ عليه السلام ـ فى حقيقة واحدة : « أن اعبدوا الله » فهذه هى القاعدة التى ترتــكز عليها رسالة السماء إلى الأرض فى كل جيل ، ومع كل رسول . ومع أن كل ما حول البشر فى هذا الــكون ، وكل ما يكمن فيهم أنفسهم ، يهتف بهم إلى الإيمان بهذه الحقيقة الواحدة ، فقد أمضت البشرية أجيالا وأزمانا لا يعلمها إلا الله ، و هى تقف أمام هذه الحقيقة البسيطة وقفة الإنــكار والجحود ، أو وقفة الهزء والتــكذيب . وما تزال إلى اليوم تروغ عن هذه الحقيقة الخـــالدة ، وتجنح إلى شتى السبل ، التى تتفرق بها عن سبيل الله الواحد المستقيم .

فأما قوم صالح ـ ثمود ـ فيحكى القرآن خلاصة موقفهم بعد دعوته إياهم ، وجهده معهم بأنهم أصبحوا فريقين يختصمون . فريقا يستجيب له ، وفريقا يخالف عنه . وكان الفريق المعارض هو الــكثرة ، كما نعرف من المواضع الأخرى فى القرآن عن هذه القصة .

وهنا فجوة فى السورة على طريقة القصص القرآنى ندرك منها أن المــكذبين المعرضين استعجلوا عذاب الله الذى أنذرهم به صالح ، بدلا من أن يطلبوا هدى الله ورحمته ـ شأنهم فى هذا شأن مشركى قريش مع الرسول الــكريم ـ فأنــكر عليهم صالح أن يستعجلوا بالعذاب ولا يطلبوا الهداية ، وحاول أن يوجههم إلى الاستغفار لعل الله يدركهم برحمته :

« قال : يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » !

ولقد كان يبلغ من فساد القلوب أن يقول المكذبون : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . . بدلا من أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلى الإيمان به والتصديق !

وكذلك كان قوم صالح يقولون . ولا يستجيبون لتوجيه رسولهم إلى طريق الرحمة والتوبة والاستغفار . ويعتذرون عن ضيقهم به وبالذين آمنوا معه بأنهم يرونهم شؤما عليهم ، ويتوقعون الشر من ورائهم :

« قالوا : اطيرنا بك وبمن معك » . .

والتطير : التشاؤم . مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التى تجرى وراء الخرافات والأوهام ، لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان . فقد كان الواحد منهم إذا همّ بأمر لجأ إلى طائر فزجره أى أشار إليه مطاردا . فإن مر سانحا عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى فى الأمر . وإن مر بارحا عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر ! وما تدرى الطير الغيب ، وما تنبئ حركاتها التلقائية عن شىء من المجهول . ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه وما لا تقدر عليه . فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات التى لا تقف عند حد ، ولا تخضع لعقل ، ولا تنتهى إلى اطمئنان ويقين .

وحتى هذه اللحظة ترى الذين يهربون من الإيمان بالله ، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه ، لأنهم — بزعمهم — قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه أن يركنوا إلى خرافة الدين ! — هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا بدينه ولا بغيبه .. نراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم ١٣ ، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم ، وعلى إشعال أكثر من لفافتين بعود ثقاب واحد ... إلى آخر هذه الخرافات الساذجة . ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة . وهى جوعتها إلى الإيمان ، وعدم استغنائها عنه ، وركونها إليه فى تفسير كثير من حقائق هذا الكون التى لم يصل إليها علم الإنسان ؛ وبعضها لن يصل إليه فى يوم من الأيام ، لأنه أكبر من الطاقة البشرية ، ولأنه خارج عن اختصاص الإنسان ، زائد على مطالب خلافته فى هذه الأرض ، التى زود على قدرها بالمواهب والطاقات !

فلما قال قوم صالح قولتهم الجاهلة الساذجة ، الضالة فى تيه الوهم والخرافة ، ردهم صالح إلى نور اليقين ، وإلى حقيقته الواضحة ، البعيدة عن الضباب والظلام :

« قال : طائركم عند الله » .

حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله . والله قد سن سننا وأمر الناس بأمور ، وبين لهم الطريق المستنير . فمن اتبع سنة الله ، وسار على هداه ، فهناك الخير ، بدون حاجة إلى زجر الطير . ومن انحرف عن السنة ، وحاد عن السواء ، فهناك الشر ، بدون حاجة إلى التشاؤم والتطير .

« بل أنتم قوم تفتنون » . .

تفتنون بنعمة الله ، وتختبرون بما يقع لكم من خير ومن شر . فاليقظة وتدبر السنن ، وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وابتلاء هو الكفيل بتحقيق الخير فى النهاية . لا التشاؤم والتطير ببعض خلق الله من الطير ومن الناس سواء .

وهكذا ترد العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة فى تقدير الأمور . وترد قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم . وتشعرهم أن يد الله وراء هذا كله ، وأن ليس شىء مما يقع عبثا أو مصادفة . . وبذلك ترتفع قيمة الحياة وقيمة الناس . وبذلك يقضى الإنسان رحلته على هذا الكوكب غير مقطوع الصلة بالكون كله من حوله ، وبخالق الكون ومدبره ، وبالنواميس التى تدبر هذا الكون وتحفظه بأمر الخالق المدبر الحكيم .

ولكن هذا المنطق المستقيم إنما تستجيب له القلوب التى لم تفسد ، ولم تنحرف الانحراف الذى لارجعة منه . وكان من قوم صالح ، من كبرائهم ، تسعة نفر لم يبق فى قلوبهم موضع للصلاح والإصلاح . فراحوا يأتمرون به ، ويدبرون له ولأهله فى الظلام . .

« وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، ثم لنقولن لوليه : ماشهدنا مهلك أهله . وإنا لصادقون » . .

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد وللإفساد ، لم يعد بها متسع للصلاح والإصلاح ، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته ، وبيتوا فيما بينهم أمرا . ومن العجب

أن يتداعوا إلى القسم بالله مع هذا الشر المنكر الذى يبيتونه ، وهو قتل صالح وأهله بياتا ، وهو لايدعوهم إلا لعبادة الله !

وإنه لمن العجب كذلك أن يقولوا: « تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه : ما شهدنا مهلك أهله » ولا حضرنا مقتله . . « وإنا لصادقون » . . فقد قتلوهم فى الظلام فلم يشهدوا هلاكهم أى لم يروه بسبب الظلام !

وهو احتيال سطحى وحيلة ساذجة . ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها ، ويبررون كذبهم ، الذى اعتزموه للتخلص من أولياء دم صالح وأهله . نعم من العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين ! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات ، وبخاصة حين لاتهتدى بنور الإيمان ، الذى يرسم لها الطريق المستقيم .

كذلك دبروا . وكذلك مكروا . . ولكن الله كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه ، ويعلم تدبيرهم ويطلع على مكرهم وهم لايشعرون :

« ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا . وهم لايشعرون » . .

وأين مكر من مكر ؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة ؟

وكم ذا يخطىء الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة ، ويغفلون عن العين التى ترى ولا تغفل ، والقوة التى تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لايشعرون :

« فانظر كيف كان عاقبة مكرهم . أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » . .

ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك ، وإذا الدور الخاوية والبيوت الخالية . وقد كانوا منذ لحظة واحدة ، فى الآية السابقة من السورة ،يدبرون ويمكرون ، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون !

وهذه السرعة فى عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة فى السياق . لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية . مباغتة القدرة التى لاتغلب للمخدوعين بقوتهم ؛ ومباغتة التدبير الذى لا يخيب للماكرين المستعزين بمكرهم .

« إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون » . . والعلم هو الذى عليه التركيز فى السورة وتعقيباتها على القصص والأحداث .

وبعد مشهد المباغتة يجيء ذكر نجاة المؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه . .

« وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

والذى يخاف الله يقيه سبحانه من المخاوف فلا يجمع عليه خوفين . كما جاء فى حديث قدسى جليل .

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١) .

« فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .

« فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ » . .

هذه الحلقة القصيرة من قصة لوط تجيء مختصرة، تبرز همّ قوم لوط بإخراجه ، لأنه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التى كانوا يأتونها عن إجماع واتفاق وتعارف وعلانية . فاحشة الشذوذ الجنسى بإتيان الرجال ، وترك النساء ، على غير الفطرة التى فطر الله الناس عليها . بل عامة الأحياء .

وهى ظاهرة غريبة فى تاريخ الجماعات البشرية . فقد يشذ أفراد ، لأسباب مرضية نفسية أو لملابسات وقتية ؛ فيميل الذكور لإتيان الذكور ؛ وأكثر ما يكون هذا فى معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء ، أو فى السجون التى يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسى ، محرومين من الاتصال بالنساء . . أما أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو

---

(١) هذه نهاية الجزء التاسع عشر فى تقسيم المصحف . ولكننا تابعنا السياق إلى نهاية القصة .

القاعدة فى بلد بأسره ، مع وجود النساء وتيسر الزواج ، فهذا هو الحادث الغريب حقا فى تاريخ الجماعات البشرية !

لقد جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر ، لأنه جعل الحياة كلها تقوم على قاعدة التزاوج . فقال : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » . فجعل الأحياء كلها أزواجا سواء نبات الأرض والأنفس وما لا يعلمه الناس فى شتى المخلوقات . والتزاوج يبدو أصيلا فى بناء الكون كله ـ فضلا على الأحياء ـ فالذرة ذاتها مؤلفة من كهارب وإلكترونات . أى من كهربائية إيجابية وأخرى سلبية . وهى وحدة الكائنات المكرورة فيها جميعا كما يبدو حتى الآن .

وعلى أية حال فالحقيقة المضمونة أن الأحياء كلها تقوم على قاعدة التزاوج . حتى التى لا يوجد لها من جنسها ذكر وأنثى تجتمع خلايا التذكير والتأنيث فى آحادها ، وتتكاثر بهذا الاجتماع .

ولما كان التزاوج هو قاعدة الحياة فى ناموس الخلق ، فقد جعل الله التجاذب بين الزوجين هو الفطرة ، التى لا تحتاج إلى تعليم ، ولا تتوقف على تفكير . وذلك كى تسير الحياة فى طريقها بدافع الفطرة الأصيل . والأحياء يجدون لذتهم فى تحقيق مطالب الفطرة . والقدرة المدبرة تحقق ما تشاؤه من وراء لذتهم المودعة فى كيانهم بلا وعى منهم ولا توجيه من غيرهم . وقد جعل الله تركيب أعضاء الأنثى وأعضاء الذكر ، وميول هذا وتلك بحيث تحقق اللذة الفطرية من اجتماعهما . ولم يجعل هذا فى أعضاء الذكرين وميولهما .

ومن ثم يكون عجيبا أن تنحرف الفطرة انحرافا جماعيا كما حدث فى قوم لوط ، بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه الفطرة المستقيم .

وهكذا واجه لوط قومه بالاستنكار والعجب مما يفعلون !

« ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم تجهلون » ..

عجب فى عبارته الأولى من إتيانهم هذه الفاحشة ، وهم يبصرون الحياة فى جميع أنواعها وأجناسها تجرى على نسق الفطرة ، وهم وحدهم الشواذ فى وسط الحياة والأحياء . وصرح فى عبارته الثانية بطبيعة تلك الفاحشة . ومجرد الكشف عنها يكفى لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية ، ولمألوف الفطرة جميعا . ثم دمغهم بالجهل بمعنييه : الجهل بمعنى فقدان

العلم . والجهل بمعنى السفه والحمق . وكلا المعنيين متحقق فى هذا الانحراف البغيض . فالذى لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شىء ، ولا يعلم شيئا أصلا . والذى يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق معتد على جميع الحقوق !

فماذا كان جواب قوم لوط على هذا الاستنكار للانحراف ، وهذا التوجيه إلى وحى الفطرة السليمة ؟

كان جوابهم فى إختصار أن هموا بإخراج لوط ومن سمع دعوته وهم أهل بيته ـ إلا امرأته ـ بحجة أنهم أناس يتطهرون !

«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون».

وقولهم هذا قد يكون تهكما بالتطهر من هذا الرجس القذر . وقد يكون إنكارا عليه أن يسمى هذا تطهرا ، فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون مافى ميلهم المنحرف من قذارة . وقد يكون ضيقا بالطهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ !!

على أية حال لقد هموا همهم ، وحزموا أمرهم . وأراد الله غير ما كانوا يريدون :

« فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين [1] . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » ..

ولا يذكر تفصيلات هنا عن هذا المطر المهلك كما وردت تفصيلاته فى السور الأخرى.. فنكتفى نحن بهذا مجاراة للسياق . ولكننا نلمح فى اختيار هلاك قوم لوط بالمطر ، وهو الماء المحيي المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة ـ ماء النطف ـ فى غير ما جعل له وهو أن يكون مادة حياة وخصب .. والله أعلم بقوله ومراده ، وأعلم بسننه وتدبيره . وإن هو إلا رأى أراه فى هذا التدبير .

تم الجزء التاسع عشر ويليه الجزء العشرون مبدوءاً بقوله تعالى : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »

---

(١) الهالكين بسبب أنها كانت عجوز سوء توافق قومها على الانحراف والشذوذ .

كتب للمؤلف

	الكتاب		الناشر
١	في ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢	العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة رابعة)	» » » »
٣	معركة الإسلام والرأسمالية	(» ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤	السلام العالمى والإسلام	(» ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥	دراسات إسلامية	(» أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦	التصوير الفنى فى القرآن	(» ثالثة)	دار المعارف
٧	مشاهد القيامة فى القرآن	(» ثانية)	» »
٨	النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(» ثانية)	دار الفكر العربى
٩	أشواك	(» أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
١٠	طفل من القرية	(» »)	لجنة النشر للجامعيين
١١	الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »
١٢	القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »
١٣	الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
١٤	كتب وشخصيات	(نقد)	... »
١٥	مهمة الشاعر فى الحياة	(»)	... »
١٦	نقد كتاب مستقبل الثقافة	(»)	... »
١٧	المدينة المسحورة	(قصة)	... »

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)


Bibliotheca Alexandrina
0593919